المعلم في لبنان

ᵒ ᵒ ᵒ

ويجوع في لبنان حتى المعلم
نودعه اصول قلوبنا ، ونحرمه فضلات طعامنا
يعمل عندنا مجانا من غير أجر
اجره دائما على الله
كأنما الله خباز يخبز في الارض وطاه يطهو في معارج الاحياء
والمعلم حكاية قدر وحكاية مصير
لا هو بالكتاب ولا هو بالحرف . ولا هو باللوح والمداد والقلم
المعلم عطية العطايا في قدسية الضمائر
وخميرة الحق في معاجن الحياة
فاذا اذللنا جبينه ، اذللنا عتبات بيوتنا
واذا افسدنا قلبه، افسدنا قلوب اجيالنا
واذا سجناه في الجوع والحرمان ، كان السجن مقبرة لاحلام غدنا
والامة التي تحتقر معلمها تنتحر وتخال نفسها تعيش
وتجوع وتخال نفسها تترف وتبذخ
لنغض بجباهنا فقد سكت في ارضنا من الجوع والعطش فم المعرفة
ايها الآكلون الشاربون ، ايها المشيدون البانون
لقد اكلتم وشربتم من ضمائر ابنائكم
ولقد شيدتم وبنيتم من اضلاع احفادكم
كان لبنان معلما شبعان ريان
يزرع في العقل شجرة النور ،ويغرس في القلب دوحة الزمن
فجعلتموه سجينا جائعا عطشان ينزف الدم من جراحه
وتتحول فيه المعرفة الى اعصار من الحقد وتيار من الضغينة
ذل المعلم في لبنان وجاع
فيا لخجل الجبل ...
... كان المعلم في لبنان شمخة الجبل

الياس خليل زخريا

العقل البدائي وتطور التفكير

بقلم اميل توفيق

مدرس اول العلوم قسم الدرجة الخاصة بجامعة لندن

البحث من زاوية الادراك

هناك نظريات عديدة تفسر انواعا من السلوك الانساني البدائي ، وتلقى هذه النظريات جانبا من الضوء على فهم العقلية البدائية . فقد فسرت كثير من المعتقدات والطقوس البدائية على أساس الخطأ في تطبيق العمليات العقلية او الفكرية . خذ مثلا نظرية فريزر Frazer التي تفسر حدوث السحر ، على انه نوع من التطبيق الخاطىء لقانون العلة والمعلول — او لقوانين تداعي المعاني Association of Ideas

فالرجل البدائي يقوم بعمل الرقي والطقوس لكي يجعل السماء تمطر ، وهو يخطىء هنا في فهم علة حدوث المطر ، وينتظر بعمله النتيجة — فهنا علة ومعلول ولكن ليست بينهما علاقة طبيعية .

اما قوانين تداعي المعاني فهي التي يطبقها البدائي في أساليب السحر مثل القانون القائل بان الشبيه يدعو الشبيه — او قانون التضاد او السحر بالعدوى وما الى ذلك . ولقد فسر فريزر بان التطور في التطبيق قد ادى الى نشأة ما سماه بالدين البدائي اذ كان على البدائيين بعد ملاحظات عديدة — ان يدركوا ان الحفلات الطقسية لم تؤد الى النتائج المطلوبة . ومع هذا فقد كان النقد الموجه لهذه النظرية أنها تفسير تعسفي اذ انها تخطىء فهم العقلية البدائية . اما ماكاليستر Macalister فيفسر الفن البدائي بقوله : انه ليس هناك عمل هو غرض في ذاته . والافعال البدائية ترمي الى غرض معين محدود . وهو بذلك يرجع الافعال البدائية الى فهم ومعقولية ويصفها بالمنطق ، مع ان صفة المعقولية نفسها صفة من العقل العلمي المجرد الذي لا يوجد خالصا حتى في المجتمعات الحديثة .

اما ليفي بريل Lévy-Bruhl فيصف عقلية البدائي بانها سابقة للمنطق Pre-logical ، عقلية تتصف بالغموض Mystical وتختلف تماما عن عقليتنا في النوع . والواقع ان هذا الوصف محض تعسف ايضا ، اذ ان هناك افتراضا بأن عقليتنا تستند فعلا على المنطق البحت . والواقع ان سلوك البدائي في مجتمعه وعالمه هو سلوك واقعي بالنسبة لهذا المجتمع ولهذا العالم . واذا اختلفت دوافع البدائي عن دوافعنا ، فمرجع ذلك الى اختلاف مجتمعه وعالمه عن مجتمعنا وعالمنا واذا بدا البدائيون اقل منطقا وادنى عقلية ، فليسوا هم في الواقع أقل فهما لواقع مجتمعهم وعالمهم من فهمنا نحن . والتفرقة بيننا وبينهم ليست تفرقة تامة ولا مطلقة .

ويبدو زيف هذه النظريات في ضوء ادراك الحقيقة نفسها Reality فقد يظن ان الحقيقة تدرك على انها شيء موجود خارج اختباراتنا وجودا مطلقا — وان هذه الحقيقة تعلن ذاتها بالطريقة العلمية فقط . وهذا ظن خاطىء اذ ان مجموعة الحقائق التي تتألف منها فكرتنا عن هذا العالم انما تحتويها اختباراتنا المرتبطة بالزمان وبالمكان . وان فحوى هذه الاختبارات العديدة مفعم بالتراث التاريخي والتقاليد الموروثة . فالحقيقة لدينا انما تمثل تراث القرون الذي انحدر الينا من الاسلاف عبر الاجيال العديدة ، وقد تكدس في اختباراتنا المرتبطة بالزمان وبالمكان . واذا كنا نعيش الان في عالم يعد بناته — في عقولنا واختباراتنا — علماء من امثال ديوكريتس ونيوتن ولفوازييه واديسون ورذرفورد واينشتين ، والاف غير هؤلاء من العلماء والباحثين والمخترعين والكتاب والادباء ، فان هذا العالم — مع ذلك — لا ينفصل عن العالم الذي سبقه والذي يدين ببناء صرحه للانبياء والقديسين ولرجال بارزين مثل افلاطون ولوثر وسبينوزا ونابليون وغيرهم من قادة السياسة والدين والحرب والفلسفة . واذا امتاز عالم اليوم بالصفة العلمية فانه يجمع الى جانبها تراثا من التقاليد الاجتماعية والدينية ، والاحداث التاريخية ، والكنوز الادبية ، مما تتناوله يد التطور المستمر جيلا بعد جيل .

وهناك نظرية اخرى هي نظرية لوك Locke عن الادراك Perception وخلاصتها ان نمو المعرفة يسير من الاحساسات الخارجية الى الموضوع الحقيقي ، ومن الموضوعات الخاصة الى الانظمة العامة والمدركات الكلية Conception (١) . والباحث في حقيقة الادراك يدرك ثلاثة خصائص هامة : اولاها ان الادراك هو استجابة نشطة لموقف معين ، يؤدي الى اشباع حاجة او رغبة عند المدرك نفسه . وثانيتها ان الموقف يدرك مبدئيا ككل لا يتجزأ ، قبلما تتميز فيه الموضوعات الجزئية والصفات الخاصة لكل جزء ، وقبلما يتباين الخاص والعام ؛ وبعبارة اخرى فالحقيقة reality او الموضوعية Objectivity هي منطقيا اسبق من المظاهر الحسية المفردة ومن تمييز الانواع والافراد . وثالثة هذه الخصائص للادراك هي ان الموقف المدرك موقف اجتماعي ، بحيث يرتبط موضوع الادراك بعالم الشخص المدرك الذي يضم الاشياء والاشخاص ويربط بينها بروابط وعلاقات من التقاليد والشعور والسلوك . فالعالم الخارجي ليس عالما ماديا مجردا ، ولكنه اجتماعي بمعنى ان له دلالة وعلاقة معينة بالعالم الاجتماعي الذي

---

(١) المقصود من النظرية هو عملية الادراك ، لا عملية القياس العقلي المسماة بالاستقراء .

ينتمي اليه الشخص المدرك . وعلى ذلك فلن يكون بحثنا في طبيعة العقل البدائي مجديا الا اذا ارتكز على هذا الاساس من الاحاطة بطبيعة الادراك الانساني .

ويمكن ان تعرف الخطوة الرئيسية في تطور العقل بانها الانتقال من الطبيعة الى الحضارة . يقابله انتقال من اللاشعور او السلوك الفطري الى حياة العقل الواعي . والسلوك الفطري عند الحيوان سلوك غريزي . ونحن نعرف الغريزة بانها صيغة السلوك الذي ينتج مستقلا عن الاختبار ، ليؤدي الى وظيفة او غاية بيولوجية مفيدة . ومثال ذلك غريزة بناء العش عند الطيور ، ولكن هذا التعريف لا ينطبق تماما على السلوك الانساني لان الغرائز في الانسان هي في اساسها انواع من الانفعالات Emotions اكثر مما هي تشكيلات من السلوك (كما في راي مكدوجل وكما هو مقبول عند كثير من علماء النفس) . على انه ليس هناك فارق محدود المعالم بين السلوك الفطري ، والسلوك الذي يجمع الى فطرته جزءا مكتسبا بالتعلم . حقيقة ان هناك فارقا بين السلوك الذي يرجع الى الفعل المنعكس Reflex action وهو عبارة عن تشكيلات آلية ، وبين السلوك الذي يتميز بالذكاء والحياة الشعورية التي تتحكم فيها المراكز المخية في الجهاز العصبي الراقي . وبين هذين النوعين نوع يميز الثدييات العليا وهو سلوك التعلم . ويصف كهلر Kohler هذا النوع من السلوك بانه يتضمن تكيف الوسائل تبعا للغايات وهذا النوع نسميه السلوك الحدسي Intuitive . لقد كان انسان العصر الحجري القديم الذي وجدت آثاره وعظامه في كهوف مختلفة في اوروبا وافريقية وآسيا ، يعرف استخدام النار ، وصناعة الالات الحجرية كالكاشط والمخارز والمسنونات وما اليها ، وكانت له تقاليد اجتماعية ترتبط بعنصر ديني بدائي وطقوس تختص بدفن الموتى ، فكانما كانت هذه جميعها وسائل حضاراته التي كانت تتكيف وفق غاياته ، وكانما العقل في هذه المرحلة يشبه ادراك شخص مستيقظ بعد سبات . او بعد فترة قليلة من الاختبار . ويعتقد بعض النقاد ان مرحلة العقل الحدسي استمرت اجيالا عديدة قبلما يصل العقل الى مرتبة المنطق العلمي .

وجدير بنا ان ننوه بالبيئة الاجتماعية وبالجو الطبيعي اللذين كان يعيش فيهما انسان العصر القديم . كانت حياته محفوفة بالمخاطر ، مليئة بالصعاب والعقبات وكانت هذه جميعا تشل تفكيره احيانا وتستثيره احيانا اخرى . وكانت تكتنف حياته الظلمات التي يقضي استخدامه للنار ان يجوس في جنباتها ليتقصى ما وراءها ، وكان عليه ان يكافح في سبيل غذائه فعرف الصوم فترات بعيدة ، كما خبر الصيد والقنص والقتال والالتجاء الى الكهوف . كان يحس وطأة البرد القارس ، وقسوة الانواء العارمة ، وفتك الصواعق العاتية ، ومن هنا كانت حاجته الى الامن مزدوجة: الامن المادي والامن الروحي على السواء . فالانتقال من الطبيعة الى الحضارة تم في اول خطواته عندما وصل الانسان الى هذه المرتبة من العقل الحدسي .

والعقل الحدسي يتميز بانه عقل سريع الردود ، مباشر التصرف ، وهو لهذا قابل للاستهواء ، شديد الحساسية للانفعالات . عقل منفعل بالمشاعر غير ثابت العواطف ، يتارجح بسهولة من حالة الاحلام الى حالة اليقظة . وفي الغالب كان الانسان البدائي — وما يزال الانسان المتوحش — تسيطر عليه حالة عقلية قريبة من الغفوة Trance او شبيهة بحالة المأخوذ ، التي نعتبرها في مدنيتنا الحديثة حالة مرضية . اما لدى البدائيين او القبليين من سكان الجهات المنعزلة عن المدنية الذين جمدوا على اوضاع المجتمع القديم مثل الهنود الحمر في امريكا ، ومثل سكان أوستراليا الاصليين ومثل قبائل افريقية الوسطى وغيرها .. اما لدى هؤلاء فانها حالة معقدة لها دلالتها الاجتماعية والنفسية معا . ذلك ان بين اولئك السكان نجد الاشخاص الذين تسيطر عليهم مثل هذه الحالات من الغفوة والذهول هم اكثرهم نشاطا ، واوفرهم قوة في المجتمع ، ويتمتعون بقسط عظيم من الشهرة والمكانة . والواقع ان هذه القوة المستمدة من الحالة الحدسية للعقل ليست جلها وهمية كما يعتقد ، بل ان نقص الادراك في صورتي الذكاء والوعي المنطقي المنظم ، تعوضه ملكة من ملكات الفهم الجسدي ، والنظر الثاقب الذي يشبه الى حد ما نظر الوسيط الروحي في التنويم المغناطيسي . وليست هذه القوى قابلة للتفسير تماما ، لا لانها خارقة للطبيعة بل لانها في مستوى اقل من مستوى الفكر المنطقي . وهذا الحدس هو الذي مكن الصياد من تشكيل ادواته وآلاته بملكة فنية ممتازة ، والهمه القدرة على مطاردة فريسته وايقاعها في قبضته ، او في شركه ، بغير ما حاجة الى اجتهاد فكري فائق . وفي معظم الحالات نجد ان ذلك الحدس يتميز بالمحاولة والخطأ ، كما يتميز بعنصر الابهام اللاشعوري Make-belief .

وفي حين ان العقل الواعي ، او السلوك المنطقي ، يتمايز فيه الفكر ، والشعور ، والعمل ؛ نجد ان الحدس او الاختبار الحدسي Experience Intuitive للانسان البدائي يضم هذه الاوجه الثلاثة للحياة الشعورية . والعالم الواقعي المدرك في حس البدائي ، هو هو عالمه الذي يجمع الى ارادته ، شعوره وتخيله . وبين عناصر العقل الحدسي ، بجانب هذا النشاط الذكي الذي يعمل على مرتبة ادنى من الواعية ، تكمن الدوافع الرئيسية وانفعالات الجوع والجنس، والخوف والغضب ، والحب والكراهية والفرح والحزن ، والكبرياء والشعور بالضعة ، وحب الاستطلاع والتملك وما اليها .

والامر الثاني الذي يميز العقل الحدسي هو تقارب التكامل بين الفكر الفردي والشعور بالحياة ، وبالافكار الجماعية ، اكثر مما نجده بين المجتمعات المتمدينة .

والامر الثالث هو اقتران الحدس بسعة كبيرة للعب ، للعمل او للصنع او لانطلاق الطاقة كغرض في حد ذاته — مع وجود ميل قوي للصيغ الايقاعية الموسيقية : Rhythmic patterns يتصف به السلوك في حالة الدهشة والاستثارات الجماعية Excitement وكما ان هذه الوظائف المختلفة ، والاشكال الذاتية المتباينة تختلط الواحدة منها في الاخرى ، وتفيض ، كذلك نجد كل نوع من انواع النشاط : الديني يمتزج بالعملي والاقتصادي ، واللعب يتحد بالفن الذي لا غرض له ، وبالافعال الغرضية ؛ والسلوك الفردي يتداخل والسلوك الجماعي ، والسلوك الفكري بالعاطفي ، والحسي بالتخيلي . ان اشكال اللغة ، والدين والمجتمع ، والحقيقة نفسها قد صيغت جميعها باسلوب العقل الحدسي ، ثم تمايزت بعد ذلك بفضل التطور في الادراك نحو الوعي العلمي ، ولكن ينبغي ان نفهم ان هذا التمايز ليس تماما او كاملا في سلوك المجتمعات ، كما ان هذا التمايز لن يكون تاما في عموميات السلوك الفردي .

ان وظيفة العقل الحدسي تماثل وظيفة عقل الطفل الذي يعتبر ممثلا للعقلية البدائية في صيغتين رئيسيتين : اولاهما قدرة الذاكرة على استرجاع الصور الحسية للموضوعات بعد رؤيتها بمدة ما ، بوضوح يقارب الوضوح الحسي الذي تظهر به المرئيات نفسها . وتسمى هذه الصور بالصور البعدية After images وتسمى الذاكرة : Eidetic Memory ثانيهما ميل العقل للتخيل وادراك الاشكال والصيغ مستقلة عن العلاقات المكانية ، كأن يدرك الطفل ـ او البدائي ـ صورة مقلوبة او منحرفة تماما كادراكه لها وهي في موضعها الاصلي ، او كان تستطيع ان تقرأ في المرآة ، او تكتب بالطريقة التي ترى بها الكلمات في المرآة . وهاتان الصفتان توضحان تغليب عنصر التخيل او عنصر الحس الشعوري على عنصر الادراك او الفكر في الوعي البدائي ، كما توضحان اسبقية « الادراك الحسي ككل » او كصيغة كلية على الادراك المميز للاجزاء وللصفات التفصيلية . وهذا بالطبع يوضح صفة الفن في العصر الحجري القديم الذي وجد في الكهوف المكتشفة في اسبانيا وفرنسا على وجه الخصوص ، ويمثل صورا منحوتة ، للحيوانات واشكالا محفورة اما على الالات الحجرية والعظمية او على جدران الكهوف . ففي هذه الرسوم تتضح الصيغة الكلية للموضوعات وعمومية النظرة اليها ، وادراكها بشكل شامل قبلما تتمايز فيها الصفات الجزئية والمعاني التفصيلية ويمكننا اذن ان نلخص الفارق بين الرجل البدائي والرجل المتمدين ، بان الاول اعتمد على سلوك العبقرية الكامنة في العقل الحدسي ، وبان الثاني اعتمد على تنظيم الفكر على اساس منطقي .

البحث من زاوية اللغة

ان نمو الفكر المنطقي ، ونمو الحقيقة الخارجية كما يفهمها هذا الفكر .. كلاهما قد ساير نمو اللغة خطوة خطوة . بحيث لا يمكن ان نفهم نموا منفصلا عن الاخر . وحينما نعرف الكلام بانه الاصوات التي تواضع عليها العرف ، فان معرفة المعاني نفسها تنمو بالتعلم ، ولا بد ان بدء عملية التعلم هذه او اصولها انما تضرب الى الماضي السحيق . فلا بد ان الانسان كان يستخدم اصواتا معينة كدلالات لها من الفحوى ، ما للموقف النفسي جميعه ، وذلك قبلما تنفصل لديه ـ او تتمايز عنده مفردات اللغة والجمل والتراكيب اللغوية . ولا بد ايضا ان الكلام في الانسان كان تعبيرا عن المواقف الاجتماعية . وكما ذكرنا ان الادراك له صفة الكلية Totality اي ادراك الصيغ ككل لا كاجزاء ، فهكذا كان الامر مع اللغة . اذ ان الكلمة كانت تعبر عن الموقف ككل ، سواء كان ذلك الموقف عاطفيا ام اخباريا ام للنداء ام للاستغاثة ام يحمل اكثر من غرض واحد .

وقد تمشى نمو اللغة مع نمو الحياة الاجتماعية ، والتعاون لتحقيق الغايات الاجتماعية كما في الصيد وصناعة الآلات . وقد اقتضى هذا ان يتدرب الابناء على تعلم الصيد والصناعة من الكبار ، ونتيجة ذلك التدريب وتكراره على مر الاجيال ، تكونت مراكز الكلام في قشرة المخ Cortex أي في النصفين الكرويين للمخ ، وبعملية التسمية التي تحدد معاني الاشياء والاشخاص والصفات والانظمة الكلية ، امكن الانسان ان تتحدد لديه معالم الحقيقة . فالذاكرة والمدركات الكلية وحتى التخيل والاحلام كل هذه تستند على عملية التسمية . وكل تسمية جديدة تضيف وحدة جديدة الى عالم الحقيقة ، وكما ان عالم الاختبار هو في المبدا عالم اجتماعي ذو علاقات شخصية ، كذلك التنظيم الموضوعي للحقائق الذي خلقته اللغة انما هو اسقاط لعالم الاختبار هذا اي اسقاط للتقاليد والعادات الاجتماعية وحتى في المجتمعات الحديثة ، ما يزال الذهن في حاجة للتعلم اللغوي والتعبيري لان يدرك تحديد المعاني للاسماء والصفات تحديدا موضوعيا ، فثمة تداخل بين الاختبار الذاتي ، والحقيقة الموضوعية التي تشير اليها اللغة . وانما الفارق بين المتمدين والبدائي هو ان هذا التداخل عند المتمدين بدرجة اقل منه كثيرا عما عند البدائي بفضل التقدم اللغوي المساير للتقدم الاجتماعي .

وبجانب عدم التحديد اللغوي ، تحمل لغة البدائي صفتين هامتين اولاهما صفة المشاركة العاطفية Sympathetic Characters للاشياء والاشخاص التي يتكون منها عالمه بحيث تظهر العلاقات والروابط الاجتماعية التي تربط الافراد في الاسرة او القبيلة او العشيرة . وثانيتهما صفة التقديس يخلعها البدائي على بعض الالفاظ بحيث يحرم عليه في بعض المناسبات التلفظ بها لصلتها باناس مقدسين ، او يخلعها على اسمه الشخصي بحيث يخفيه خشية ان يضره احد بقوة سحرية ، ومن هنا جاءت كلمات الرقي وكتابة الاحجبة وما شاكلها مما يدل على استخدام كلمات لها مفعول سحري .

ولا يخلو مجتمعنا الحديث من بقايا هاتين الصفتين فما تزال صفة التشخيص تخلع على الالفاظ ، والتراكيب اللغوية ، وعلى المعاني المجردة . واللغات ما تزال مشحونة بهذا التراث التاريخي . وليس الشعر ، في ناحية خاصة ، الا امتدادا لهذه العبقرية الكامنة في عنصر المشاركة وعنصر التخيل وحب النغمات الايقاعية .

البحث من زاوية العنصر الديني

يجد عنصر التخيل لدى البدائي طريقة المبدع في صناعة الالات ، وفي الفن وفي اللغة وفي الطقوس السحرية والدينية . وتعرف الطقوس ، التي كانت في مبدئها نوعا من الرقص ، بانها اسلوب من السلوك الشكلي او التقليدي يقام في بعض المناسبات ويختلط بحالة الدهشة الجماعية . وهو اسلوب ينتظم عناصر اللعب والميل الى التشكيلات والحركات الايقاعية موسيقية ولفظية وجسدية معا . وفي حين نشأ الفن عن التشكيلات الحركية واللفظية، كنوع من النشاط المقصود لذاته نشأت الطقوس عن الفعل الاجتماعي وما يصاحبه من اثارات وحماسات ، وعلى رغم انها في اساسها تعتبر غير مميزة عن المشاعر الجمالية من جهة ، وعن المشاعر الجنسية من جهة اخرى ، فقد ظلت تحتفظ بطابع ديني لانها ارتبطت بشعور جماعي مشترك وبعبارة اخرى فان الطقوس البدائية كانت عملا اتحاديا ، حيث كان الفرد يخضع للجماعة ، ويشارك في الحماس المقدس بين افرادها . وهذا يتفق مع الغريزة الجماعية او غريزة القطيع (مع التجاوز عن لفظ الغريزة هنا) . وفي عرف بعض الباحثين ان الامتثال لدعوة الدم (وشيجة القربى) التي تعبر عن نفسها بطقس الرقص كان اول فعل

ملاحظات على وضع المصطلحات العلمية

بقلم الامير مصطفى الشهابي

✳

كنت اجملت في كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » القواعد السديدة التي اقرها مجمع اللغة العربية (1) في وضع المصطلحات او تحقيقها . ولست الان في سبيل بحث تلك القواعد . فبحثها طويل ، والزملاء الافاضل اعرف الناس بها . ولا اظن ان احدا من اللغويين او من واضعي المصطلحات يخالفهم فيها . ولكني اقف عند قضية ما برح علماء العربية وعلماء العلوم الحديثة يجادلون فيها ايما جدال : وهي قضية حدود التعريب ومداه في وضع المصطلحات العلمية للعلوم الحديثة .

لقد اتخذ هذا المجمع الموقر القرار الآتي في التعبير :

« يجيز المجمع ان يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية ــ عند الضرورة ــ على طريقة العرب في تعريبهم » .

فكلمتا « عند الضرورة » هما بيت القصيد . وهما مثار الجدل والنقاش . فالضرورة عند بعض علمائنا كلمة صغيرة رخوة جد قابلة للمط والتأويل . ولهذا رأيناهم يرجحون فتح باب التعريب على مصراع او مصراعين .

والضرورة عند اخرين كلمة قوية في مبناها وفي معناها . فهي في نظرهم جديرة بان تراعى بدقة في تعريب الالفاظ العلمية . وهي تحتم البحث العميق عن الفاظ عربية النجار حتى لادنى ملابسة بين معانيها ومعاني الالفاظ العلمية الاعجمية .

وبين هذا الفريق وذاك ، اي فريق المتساهلين وفريق المتشددين في امر التعريب ، يقف واضعو المصطلحات العلمية يتساءلون عن اصلح خطة تتبع في نقل كل لفظة علمية الى لغتنا الضادية .

وكلنا نعرف ان كلا الفريقين انما يتشبث برأيه اعتقادا منه ان رأيه هو الذي ينهض باللغة العربية فيجعلها صالحة للتعليم العالي والتعبير عن حاجاته المدنية الحاضرة .

فانصار التعريب الواسع يقولون ان الالفاظ الاعجمية، كثرت او قلت ، ليست من مقومات اللغة . واللغات تتميز بعضها من بعض بتراكيب جملها ، وبحروف معانيها ، اي بما اختصت به من قواعد في الصرف والنحو واساليب الاشتقاق والقياس وغير ذلك . ففي الانكليزية والفرنسية والالمانية مثلا آلاف مؤلفة من الالفاظ العلمية المشتركة ومع هذا نجد كلا من اللغات الثلاث مستقلة عن الاخرى .

وينتهون الى القول بان فرط التعريب لا يضر بلغتنا بل يدنيها من لغات العلم الاوروبية ، ويجعلها قادرة على استيعاب العلوم الواسعة الحديثة .

اما المتشددون فيرون ان المعربات العلمية لا توحي الى القارىء العربي بشيء من معانيها . وان هذا القارىء لا يفهمها ما لم تشرح له شرحا وافيا . خذ مثلا حشرة من الحشرات . وقل للطالب الفرنسي انها تنسب الى رتبة

(1) من بحوث المجمع اللغوي المصري

ديني بدائي اتاح الربط الاولى بين الجماعة القبلية . وليس الانفعال الجماعي غريبا في مجتمعاتنا الحاضرة ، وما نزال نرى اناسا يجتمعون في هستريا جماعية تشبه الى حد كبير تلك الطقوس البدائية .

ومما قوى هذه الحماسات الجماعية وجود حاسة الرهبة awe عند الافراد ــ الرهبة من قوى الطبيعة وازمات الحياة واحداثها الهامة .

وباطراد التقدم والوعي حول النفس وما يخامرها ، نجد الانسان يملأ عالمه بالارواح والاشباح ويجسد اختباراته ويعكس مخاوفه وغضباته وقواه ورغباته واهواءه ان ما امتاز به من قوة وعنف وجبروت مما يشيع في نفسه الكبرياء والتعاظم ... كان هو نفسه مصدرا لقلقه ورهبته وخوفه وتمنعه . ومن اجل ذلك خلق العقل الحدسي هذين الموقفين المتقابلين يكمل احدهما الاخر وهما التابو والمانا . التابو كلمة ميلانيزية بمعنى التحريم الطقسي والمانا وهي كلمة بولينزية معناها القوة او الحظ الذي تجلبه قوة علوية غيبية فقد ملأ الانسان حياته بعدد وفير من التحريمات او اللامساسات taboos كما اعتقد بتلك القوة الغيبية mana التي تكمن وراء الاشياء التي تتعلق بامور العناية العلوية فرآها في الحجر يدفنه في الحقل ظنا منه انه يجلب خصوبة التربة . ورآها في الشجر وفي الحيوان وفي الريح وفي النسمة وفي الدم الذي يرمز للحياة ــ ورآها في الاشخاص: في المرأة وفي الساحر وفي غيرهما .

القاهرة — اميل توفيق

الـ Orthoptères فهو يدرك على الفور ، أي قبل قراءة الشرح ، ان لهذه الحشرة اجنحة مستقيمة وسبب ذلك اطلاع هذا الطالب على مبادىء اليونانية واللاتينية . اما اذا اقتصرت على ذكر الكلمة الفرنسية وحدها للطالب العربي فهو يلبث فاقد الفهم حتى تشرحها له ، او تترجمها بلغته العربية فتسميها مستقيمة الاجنحة ، مثلما تسمى رتب الحشرات الاخرى عصبية الاجنحة ومغمدة الاجنحة وعديمة الاجنحة وذوات الجناحين وهكذا .

ويقولون : لقد آمنا بان هنالك اسماء لا بد من تعريبها كالتي تكون منسوبة الى اعلام . وآمنا بان مجال التعريب واسع في نقل كثير من اسماء الاعيان كاسماء بعض الادوية والعقاقير والمركبات الكيماوية ، واسماء بعض اجناس النباتات والحيوانات مما له معان لا يستطاع ترجمتها بكلمة عربية واحدة ... الخ . ولكن لماذا يراد منا تعريب الكثير من الفاظ المعاني الاعجمية التي لا يشق على علمائنا ايجاد الفاظ عربية سائغة تعبر عنها ؟ ألان العربية عاجزة عن ذلك ؟ ام لان التعريب لا يقتضينا ادنى مشقة في تحري الالفاظ العربية الصالحة ؟ وهل من الصحيح ان الاكثار من التعريب هو وحده العامل الذي ينهض بلساننا الى مستوى السن العلم المعروفة ؟

والذي اراه ان الفريقين اذا راعيا الروح الذي يجب ان يسود في نقل المصطلحات العلمية الى لغتنا العربية انتهيا لا محالة الى وفاق . فكلاهما يريد ان تتسع لغتنا للعلوم والمخترعات الحديثة . وكلاهما يريد ايضا ان لا تصبح هذه اللغة شبيهة بلغات الزنوج بسبب الافراط في التعريب بلا ضرورة .

ومما لا مرية فيه ان اعضاء مجامعنا العلمية ، واساتيذ جامعاتنا العربية ، وجمهرة ادبائنا وكتابنا ، على تفاوت آرائهم ، ينظرون الى هذا الموضوع نظر المخلصين المؤمنين بضرورة رفع العربية الى مستوى اللغات الحية الكبرى . فجدير بالعاملين منهم في وضع المصطلحات العربية ان يراعوا عند البحث في كل لفظة اعجمية قواعد النقل العامة التي يتبعها اليوم هذا المجمع الموقر ، مثلما اتبعها في الزمن الماضي قدماء النقلة والمؤلفين العرب وخلاصتها على

(ا) تحري لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الاعجمي . وهذا يستلزم ان يكون الناقل مطلعا اطلاعا واسعا على الالفاظ العلمية المبثوثة في المعجمات العربية وفي كتبنا العلمية القديمة .

ب ـ اذا كان اللفظ الاعجمي دالا على معنى علمي جديد لا مقابل له في اللغة العربية ، ترجم بمعناه كلما كان قابلا للترجمة . او اشتق له لفظ عربي مقارب . ويرجع في وضع اللفظ العربي الى وسائل الاشتقاق او الى المجاز او النحت .

ج ـ واذا تعذر على الناقل الكفء وضع لفظ عربي بالوسائل المذكورة عمد الى التعريب مراعيا قواعده على قدر المستطاع .

ومن الواضح ان دور التعريب في هذه القواعد لا يأتي الا بعد العجز عن ايجاد كلمات عربية سائغة والصعوبة كل الصعوبة انما تكون في معرفة متى ترجح الكلمة العربية ، ومتى ترجح الكلمة المعربة .

ولقد قلت في كتابي الذي المعت اليه في بدء هذا الكلام : « من السهل معرفة هذه القواعد الحسنة . ولكنه ليس من السهل العمل بها . ففي كل عام مصطلحات متنوعة وكل لفظ علمي يحتاج الى دراسة خاصة لمعرفة اصلح لفظ عربي او معرب يقابله . وفي هذا المجال الوعر تتعارض آراء علمائنا ، وفيه تعرف كفاية العالم الثبت ، ودقة نظره ، وسلامة ذوقه جميعا . »

وبعد لا بد للقادر على وضع المصطلحات العلمية من ان يضع نصب عينيه ان النهوض باللغة والاحتفاظ بسلامتها هما الاساس الذي يقوم عليه عمله . وعندئذ يصبح من غير المتعذر عليه ادراك حدود التعريب ومداه في كل لفظة علمية اعجمية يعالج نقلها الى لساننا في صبر العالم الثبت واناته ، وفي حسن ذوق الاديب المطبوع ودقة نظراته .

القاهرة — مصطفى الشهابي

يا ضعف البشر

ليتني أعرف سرّ منامي
ليتني أعرف الظلام ونهاري
بيني وبين الكائنات حديث
ماذا تحكي ؟
أبلساني ؟
أتلوّى من الألم
أعيش في العدم
أهرع الى الطبيعة
يضمني فيها الصخر والتراب
أفيق على أنوار السراب
قاسية يد أمي
تركتْ على جبيني أخاديد
وأبي .. مرّ بي
وأخي .. لا شيء
أدقّ صدري بالحجر
لو محوت الحياة بالقدم

وصوت عجيب لم يسمع به بشر
برْق ظنّ أقوى من براكين
رحت ألضم بالصوت الرياحين
في أعماقي كان الجحيم
قهقهة من وادٍ سحيق
لو متّ يا نفسي
لو كنت دماء الأزاهير
عدتُ أعدّ الايام والسنين
أطوي صفحات سوداء سوداء
كمشكاة دون قنديل

ينوح قلبي
وهل ألام ؟
يبكي معي الشجر
أقسم ان الدنى ألم
يقسم معي السحر
اصبع تشير اليّ
لِمَ البكاء ؟
يا ضعف البشر !
عدت الى قلبي الحذر
أذوّب الحروف
أكسّر القلم
أريد البكا
ينوح قلبي
وهل ألام ؟
تبكي معيّ النجوم
أقسم ان الدنى عدم
تقسم معي الصخور
اصبع تشير اليّ
لمَ البكا ؟
يا ضعف البشر !
يشتد بي الفراغ
والبكا
ما أقسى البشر !
كل شيء يحيا
أحسد حتى الحجر

ثريا ملحس

الـكـأس

قصـة قصـيرة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

ذكرى الصديق الذي عدت من رحلتي فلم اجده ، والذي هذه هي قصته . [ع]

O

سكتت في مقعدي اتطلع الى الدكتور رشيد مترقبا في فضول جوابه على سؤالي الذي القيته عليه بينما كان هو يمر اصابعه برفق على جوانب الكأس التي كانت على منضدة مكتبه بيننا وكأنه يمرها على وجنتي فتاة حبيبة . رفع اول الامر تلك الكأس الى اعلى من مستوى عينيه حتى لمعت الكلمات المنقوشة عليها تحت ضوء المصباح الساطع وقال :

ــ هذا كل ما بقي لي من هيلغا .

ثم اعادها الى موضعها . وبعد ان سكت برهة قصيرة انطلق في حديثه وعلى شفتيه ابتسامة متذكر شاحبة .

قال الدكتور رشيد :

ــ اذا احسنت وصف هيلغا لك فقد تتعرف اليها ، فانت قد رأيتها مرة . لا تتطلع الي هكذا فانا اعني ما اقول . هل تذكر حين دعوتني منذ بضعة اشهر الى رؤية فيلم الماني في احدى دور السينما ؟ هل تذكر كم تأبيت عليك واعتللت حينذاك بالف علة حتى ارفض دعوتك ؟ لم اكن حينذاك في حالة نفسية تسمح لي ان ابين لك السبب الحق في رفضي ذاك ، اما الان فاني اقول لك ان الممثلة الاولى ، او ان احدى الممثلتين الاوليين ، في ذلك الفيلم هي هيلغا .

نعم ان هيلغا ممثلة سينمائية ، بارعة وجميلة . هي جميلة في الحياة اكثر مما عليه على شاشة العرض وحين عرفتها كانت النجمة في احد مسارح فايبورغ غاسه في فينا . كان ذلك المسرح صغيرا ، ولكن ما الذي يعنيه صغر المسرح اذا كان في فينا ؟ ذاك يعني ان الروايات التي تمثل فيه هي روايات الطليعة التي لا يجرؤ مسرح تقليدي على تقديمها لجمهوره من المحافظين ! ويعني ان ممثليه هم شباب طموح يحرقون اعصابهم ، بكل مثالية عمر الشباب ، فو بوتقة الفن لا طمعا في اجر ولا اداء لواجب روتيني لكن لعيني الفن الاصيل . وكانت هيلغا ملكة ذلك المسرح الصغير في فايبورغ غاسه .

هل تذكر حسنها في الفيلم الذي حضرته ؟ اني لم ارها معك ولكني احسب انها لا تستطيع الايام ان تمس حسن هيلغا بغير انامل الرفق والمحبة . عيناها الخضراوان في وجه وردي الملامح تحت ذهب الشعر المضفور جدائل تعصب راسها في تمثيلية « فتاة الكوخ » ، وشفتاها الموردتان المضمومتان كانهما تمنحان في كل كلمة تلفظانها قبلة لكل اذن تسمعها في تمثيلية « البوهيمي الاسمر » ، وجيدها المتلع دوما وقدها المتفجر صبا ، كل تلك بعض لمسح جمالها الفتان . ولكن اجمل من كل تلك نفسها . هذه ما لم تستطع رؤيتها انت على الشاشة واضحة وان كنت واثقا انك تلمست بوارق منها في نظرات عينيها الفائضتين حنانا . اما انا فقد عشت في غمرة ذاك الحنان وفي هالة ذاك الجمال فترة السعد من حياتي ، في فينا في اخر سني دراستي هناك .

تعلقت بهيلغا كما تعلق بها كل رواد مسرحها الصغير . وكان تعلقنا بها مصدر ربح لمشرب بروكنر الذي كانت تتردد عليه هيلغا بين حين واخر والذي كان يجاور شتاد بارك ، حديقة المدينة ، قريبا من فايبورغ غاسه . وفي مشرب بروكنر هذا نشأت اول المعرفة بيننا ، ولاقل اول معرفتها بي ما دمت انا قد عرفتها منذ حضرت تمثيلية فتاة الكوخ لاول مرة . ومن عجب ان تتخطى هيلغا بهوى نفسها كل الحالمين بنظرة منها لتقف علي انا الطالب الغريب الخجول كان امثالي الطلاب بين عشاق هيلغا كثيرين ، وبعضهم اخوان لي من مختلف البقاع العربية سمر الوجوه سود العيون . ان المحيا الاسمر اهل لان تقف عليه عيون الفتيات في اوروبا الجرمانية . ولكني في فينا كنت احسب من اهلها في شقرة وجهي وزرقة عيني . والثراء هو احدى الوسائل المؤدية الى قلوب الغواني ، ولكني كنت طالبا معدما منقطع الصلة بالاهل والوطن في الغمرة التي تناولت بلاد النمسا في اعقاب الحرب الاخيرة . لم اكن حتى ولا فنانا موسيقيا او شاعرا يتسلل الى قلب الفتاة الرومانتيكية التي هي هيلغا عن طريق اورفيه او بلسان ربة الالهام . ومع ذلك فقد احبتني بكل غنى روحها وفتنة شبابها تلك الحورية السابية النظرات ! فكان اثلج لصدري واكثر اثارة لعاطفتي واشد ارضاء لغروري ان اعلم ان هيلغا انما تحبني « انا » ، انا لنفسي ، انا الذي لم يزوقه جمال جسدي ولا رغب به عرض المال الزائل ولم تحتجب خصال نفسه وراء امارات عبقرية محتملة . ان الحب الصحيح هو هذا . واحسب انني احببت هيلغا كذلك . كانت طريقي الى معرفتها قد مرت بالمسرح حيث تنصب عليها نظرات مائة وعشرين من الرواد في كل امسية ، ولكني بعد ان عرفتها وثقت من اني احببتها لذاتها لا لتصفيق رواد ذلك المسرح لها . لا استطيع ان اقول اني لم اكن احبها لجمالها ، فهي والجمال كانا شيئا واحدا وما كانت هيلغا الا الحسن مسكوبا في صورة امراة وفي روح تلك الامراة . كانت تفيض

الحسن على كل ما تمسه وكل من حولها . حتى ادوار الشر التي كانت تمثلها على خشبة المسرح كانت تكتسي مسحة من الحسن غامضة لا يكاد المشاهد يعرف حقيقةاحساسه نحوها . فالشر يصبح معها شرا اخاذا ساحرا ، شرا جميلا ... وكذلك كان دورها في « فتاة الكوخ » الذي رأيتها فيه لاول مرة والذي حملت ذكراه حتى هنا ، في قلبي ومنقوشة على هذه الكأس .

تسألني عن هذه الكأس؟ ان الاسماء المنقوشة عليها هي اسماء ممثلي مسرحية فتاة الكوخ على ذلك المسرح الصغير في فايبرغ غاسه ، وترى اسم هيلفا هو الثاني بينها . من عادتهم هناك ، في فايبرغ غاسه ، ان يحتفلوا ابتهاجا بكل رواية تمثل مائة مرة متتالية ، وان يخلدوا احتفالهم بان يطبعوا صورة من اعلان التمثيلية المحتوي اسم الرواية واسماء المؤلف والممثلين على كأس يحتفظ كل مشترك بالحفل بواحدة منها . وهذه احدى تلك الكؤوس ، كأس فتاة الكوخ التي كانت هيلفا تقوم فيها بدور زوجة صياد تتصبى كل مار امام كوخها في فترات غياب الصياد . انه دور بغيض في رواية الفها كاتب مبغض للمرأة من اعماق كيانه ، ولكن هيلفا اعطت دورها معنى اخر فاذا البغض عاطفة انسانية لا تثير في النفس عاطفة اسوا بل تحرك الشفقة وتثير الحدب وتدعو الى الرثاء . غمست هيلفا انملتها في السم الذي اراده المؤلف زعافا فحطمت شرته فاذا هو كالسم الذي يحقنه الاطباء لخيول المخبر ، مثيرا لدفاع البدن وخالقا للترياق ودواء لادواء . كانت فتاة الكوخ شرا فاذا هي بهيلفا ينبوع خيرات ، على خزانة مسرح فايبورغ غاسه ، وفي نفوس رواد ذلك المسرح ، وعلي انا ، انا الذي شرب الترياق الذي اعاده الى الحياة من هذه الكأس التي تراها امامك .

اظنك تحسبني انسقت بحمى الكلام والمبالغة فيما اقوله لك . صدقني في اني اروي لك الحقيقة . ففي مرتين متتاليتين رأيت الموت امام عيني ، ثم عدت الى الحياة بقطرات اسقيتها من هذه الكأس . ما حدثتك قبل الان عن خناق الصدر الذي هاجمني بنوبتين في فينا ، وما كان لي ان احدث بهذا احدا حتى ولا نفسي . ان ذلك يعني ان اذكر كل الناس ، ومنهم انا ، بأن سيف داموقليس معلق فوق راسي مهدد بالسقوط في كل لحظة على عقدة الحياة مني . ولكن قصة هذه الكأس، وهي قصة هيلفا كذلك ، لا تتم اذا لم اعترف لك بهاتين النوبتين ، وبالداء الذي سكن الشريان الاكليلي من قلبي. تلك عقابيل سني الحرب في اوروبا المتطاحنة القوى والامم في بدني .

دهمتني النوبة الاولى في اعقاب ليلة من ليالي الصيف قضينا نهارها ، وكان يوم راحة لهيلفا وعطلة لي من المستشفى ، في كوبنزل من ضواحي فينا . نسينا في كوبنزل ان فينا بلدة دكت القنابل اروع معالمها وعض الجوع اهلها وملأ الحزن قلوب ابنائها واختالت جنود اربع دول محتلة في جنباتها ، فانصرفنا مع الهاربين امثالنا من واقع حياة يومية مؤسية الى كرع الخمر ، خمر كوبنزل القوية ، والى الغناء في جوقات لا يعرف افرادها بعضهم بعضا متناثرة تحت دوالي العنب المنعقدة فوق رؤوسهم ، والى الانطلاق مرحا في هذه الناحية التي تبدو وكأن نبرات بيانو بيتهوفن القوية ، حين اصيب هذا الجبار بالصمم ، لاتزال تدوي بين منازلها وفي ازقتها الضيقة . وعدنا مساء مخمورين مجهدين الى فينا ، والى غرفة هيلفا في ماريا هيلفر شتراسه ، وهي غرفة مرتفعة ارتقينا سلمها كأنما كنا نتسلق جبلا ، حتى اذا بلغت السرير في زاويتها القيت بنفسي عليه وقد احسست بأن انشوطة قد عقدت فجأة في موضع من صدري وراء عظم القص . جهدت بعد ان القيت بثقلي على السرير ، على ان اشهق بنفسي حتى احول دون ان تطبق الانشوطة على ما عقدت عليه ولكني كنت اشعر بان كل جهد مني كان يحرك الما بارقا كأنه مس سلك كهربائي في نقطة اشعر بوجودها ولا احسن ان ادل على موضعها الحق من صدري . ومرت لحظة خيل الي فيها ان الانشوطة قد حلت وان انفاسي غدت حرة اجذبها وادفعها على هواي ، لولا ان الما جديدا ، الما غريبا لم يسبق لي ان شعرت بمثله، قد تحرك في ايسر مكان الانشوطة متشعبا الى الكتف ممتدا الى المرفق منحدرا الى خنصر كفي اليسرى . كان حبلا من الوجع المزعج ، المحرج ، الخانق ، كأنما اوثق القلب واطبق على مصاريعه فمنعها من الخفق والارتداد، وامتد في الذراع اليسرى فاثقلها وقيدها وشعع الالم فيها موجات على طول مسيره . عندئذ تذكرت اني طبيب فادركت اني على شبابي قد افترسني داء لا يصيب الا الكهول ، فناديت هيلفا وهمست لها :

ـ اني اموت يا هيلفا . بي انسداد في شرايين القلب ، فاستدعي لي طبيبا ...

الموت ! .. ما كان اقربه مني في تلك اللحظة . كان يقبض على روحي من خنصري ، خنصر يدي اليسرى ، حيث انتهى حبل الالم الخانق . في ذلك الحين ذكرت اني غريب منقطع عن الاهل بعيد عن الوطن قد فصلت بيني وبين ذوي الاف الكيلومترات وعشرة اعوام من الزمن مثقلة بدخان الحرب وانين ضحاياها . غريب في فينا حيث لم يكن لي غير هيلفا ... فهتفت من اعماق قلبي المنازع باسمها:

ـ هيلفا ... هيلفا !

وكانت غمة ، وخلصت منها بروحي . فلما صحوت صحوت على هيلفا وهي تسقيني الدواء الشافي في هذه الكأس ، قطرات كانت تحل عقد الانشوطة التي اوثقت قلبي ، ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم . لقد سقتني الدواء في هذه الكأس لانها كانت اقرب الكؤوس الى يدها حين جاء الطبيب لعيادتي . ولكني تفاءلت بها خيرا . اليست هي كأس فتاة الكوخ من بين كؤوس المسرحيات الكثيرة التي مثلتها هيلفا ؟ او ليست « فتاة الكوخ » هي المسرحية التي رأيت فيها هيلفا اول مرة ؟ لذلك حين دهمتني النوبة الثانية بعد شهر ، وكانت اخف وطأة من الاولى ، اصررت على الا اشرب دواء الا من هذه الكأس . وضحكت هيلفا في حينها . ولكنها حين دنا موعد فراقنا المحتم ، هي الى هوليوود حيث تنتظرها سماء ارحب بالنجوم اللامعة وانا الى بلادي احمل في جيبي شهادتي وفي قلبي شعبة مسدودة من شعب الشريان الاكليلي ، حين دنا موعد فراقنا مدت الي يدها بهذه الكأس وعلى شفتيها ابتسامة دامعة وفي عينها دمعة ضاحكة ، وقالت :

ولدي

ولدي ! أناملك الطرية زينّت ... عشي برقّـة طائر متنقـل

ويكاد سمعي من هديلك في الضحى ... ينـدى بألف خميـلة أو جدول

شيَّدت لي أملاً أعيش بظله ... من بعد ما عصف الزمان بمأملي

كالشجرة الجرداء كنت فأورقت ... أغصانها لمـا حللت بمنـزلي

ولدي ! وما أحلى نداءك في فمي ... وجه الربيع لدى النداء يهش لي

تغفو قرير العين في مهد الكرى ... ويظل قلبي كالسراج المشعـل

فلرب حلـم كالشتاء مقطّب ... عبثت اناملـه بجفن مسبـل

أخشى عليك حفيف اجنحة الصبا ... وشذا خدود الزنبق المتبتـل

ولو انني استطيع حفظك في دمي ... لفتحت قلبي ثم قلت لك : ادخل

★

يا سـاكب الخير العميم ، وواهب الامل العظيم ، ومنبع الجود العلي

يا مبدع الوتر الجميل ، يسيل باللحن الكحيل على لسـان البلبـل

يا كاسياً زغب الطيور ، ومانحاً غضّ الزهور ، مطارفاً من مخمل

نضّر بيمناك السخيّة قلبـه وأنر له درب الحياة وذلّل !

حماه ـ سورية

عـارف قيـاسه

ـ هذه لتذكرني ولتشرب فيهـا دواءك اذا ادركتك ، حزنا علي ، النوبة الثالثة ...

هذه يا صديقي قصة الكأس التـي تسألني عنها ، كأس فتاة الكوخ التي تتعهدها اليوم ايدي سحرة هوليوود ليبرزوا بها نجمة ساطعة النور فـي سماء دنياهم العجيبة ، الكأس التـي احرص عليها محتفظا بها في اقصى درج من دروج آلاتي الثمينة ذكرى لهيلفا واحتياطا لساعة تفاجئني فيها النوبة الثالثة من نوبات خناق الصدر. لست طبيبا ، ولذا فانت تحسبنـي متشائما . ولكن قلبي بعد ان دهمته نوبتا الخناق الاولين اصبح كزهرية من الخزف الثمين اصابها شعر دقيق، فهي مهددة بان تغدو حطاما عند اول صدمة . قال اساتذتي في جامعـة فينـا بان لا خطر بعد اليوم عـلى قلبي من نوبة جديدة ، وان الشعبـة المسدودة من شرايين قلبي قد قامت مقامها شعب جانبية اخـذت عـلى نفسها ان تغذي تلك المنطقة من نسيج القلب التي كان يغذيهـا الشريـان المسدود . ولكني لست مريضا مـن مرضاي لاصدق هذا الكلام . اني في انتظار النوبة الثالثة في كل وقت ، ولقد اعددت لها كل دواء اعد لتشنج الشرايين ولاحتشاء القلب ولتخثـر الدم ، واعددت لها ايضـا هـذه الكأس ...

ورفع الدكتور رشيد ، حين بلـغ من حديثه هذا المبلغ ، تلك الكأس بين يديه معرضا نقوشها لاشعة المصباح. كان منقوشا على ظاهر الكأس اسماء كثيرة ، المانية الوقع ، تبينت مـن بينها اسم هيلفا واضحا لطول مـا ردده صاحبي على مسمعي في هـذه الامسية . ولم يكن لدي ما اعلق به على حديثه ، فقد كان جوابه عـلى سؤالي له عن هذه الكـأس قصـة كاملة ، لذلك حثثته على الخروج مـا دام قد اتم عمله هذا النهار كيمـا يتسنى لنا ان نجد مكانا مناسبـا

في النادي حيث تلقى محاضرة كنا اتعدنا على حضورها هذه الامسية .

اخذ صديقي يغلق ادراج مكتبه ليستعد للخروج . ودخلت خادمة العيادة لتطفىء الاضواء في المكتب ولترفع فنجان القهوة من امامي . وكان الدكتور رشيد قد قام عن كرسيه الى زاوية المكتب ليستبدل برداء العيادة الابيض سترة الخروج بينما انحنت الخادمة بين المكتب ومقعدي لترفع عقب لفافة كان قد سقط على الارض وحينما رفعت الفتاة جذعها حركت ذراعها حركة افقية على مستوى سطح منضدة الطبيب لتلقي ما التقطته من الارض في صحن الاعقاب . فكان ان صدم مرفقها تلك الكأس على المنضدة فتدحرجت هذه بتؤدة وسكون . وقبل ان تنتبه الفتاة المسكينة وقبل ان افطن انا الى ما كان في سبيل ان يحدث ، هوت الكأس عن المنضدة فاصطدمت ببلاط الارض فتحطمت.

تحطمت تلك الكأس . ما تصورت قط ان وجه اي انسان يمكن ان يغدو مسرحا لمزيج من الانفعالات العنيفة مثل التي بدت في ملامح صديقي الدكتور رشيد : في حدة نظراته واحتقان جبينه وازرقاق شفتيه واختلاج جوانب انفه ، حين التفت من موقفه عند مشجب الثياب ليرى الارض مفروشة بحطام تلك الكأس . خفت على الفتاة الغافلة من هذه الثورة المحتدمة التي تشنجت بها كل عضلة في وجه صديقي الطبيب وفي اصابع يديه التي كنت اراها منقبضة قد انغرست اظافرها في باطن كفيه . وخفت على الدكتور رشيد نفسه من هذه الثورة وهو الذي لم ينته بعد من وصفه لنوبة قلبه التي كادت تؤدي بحياته . فقمت من مكاني اليه وقلت له وانا احاول ان اكسب صوتي طابع هدوء كنت افتقده في اعماق نفسي :

– لا تنفعل يا دكتور ، فلا ذنب لهذه المسكينة في الامر .

فارتفعت يد الدكتور رشيد مشيرة للخادمة الى الباب. فخرجت المسكينة مسرعة بينما تهاوى هو على الديوان الذي كان تحت المشجب ، واضعا راسه بين يديه .

هززت منكبه بيدي وقلت له :

– اكل هـذا من اجل كأس تحطمت ؟

فقال دون ان يرفع راسه :

– ولكنها كأس هيلفا ، كأس فتاة الكوخ ...

فتضاحكت وقلت له :

– ليس هذا ما يؤلمك ، فانت في الحقيقة خائف .

قال :

– خائف ؟

قلت :

– نعم . وانت فوق ذلك ، على كونك طبيبا حشو راسه علم موضوعي تؤمن بالخرافات . انك خائف من ان تأتيك النوبة الثالثة وليس بين يديك كأس صاحبتك هيلفا تشرب منه الدواء ! ...

فسكت الدكتور رشيد لحظة ثم قال هامسا كأنما كان يكلم نفسه :

– ربما .

قلت :

– اذن يجب ان تعتبر تحطم هذه الكأس بشير خير . انه مؤذن بان ما بينك وبين النوبات القلبية قد انقطع. الم تصبح في بلدك وبين اهلك ؟ ذاك جو النمسا الخانق وحياة اوروبا المحطمة للاعصاب والممزقة للشرايين. اما اليوم فانت في دمشق جنة الدنيا ... ثم لا تنس يا رشيد انك مقبل على زواج بعد شهرين . او ما تخشى من غيرة العروس من هيلفا اذا ما وقعت عينها على كأس هيلفا ؟

وتركته وانصرفت الملم حطام الكأس على الارض لئلا يؤذيه منظرها متناثرة تحت الاقدام . وبينما كنت القي الشظايا في سلة المهملات تحت المنضدة لاح لي اسم هيلفا على احدى الشظايا ، فرفعتها اتأمل في الاسم الجميل كأني ارى فيه صاحبته . ولست ادري ما الذي حدا بي الى ان انظر الى صديقي وهو لا يزال في مكانه من الديوان ، فلما اطمأننت الى انه لا يزال مطرقا براسه ، دافنا وجهه بين كفيه ، دسست تلك الشظية في هدوء في قاع جيبي ...

كل الذي حدث بعد هذا ، بعد نحو من شهر من تحطم الكأس ، تعرفونه انتم . تعرفونه مجملا ويعرفه بعضكم بالتفصيل . ولكن ما الفرق بين الاجمال والتفصيل في موضوع مثل هذا ؟ موضوع الموت ، الموت هو اجمال كل تفصيل في الوجود ، وقد مات الدكتور رشيد بعد نحو شهر من تحطم الكأس ، فما جدوى التساؤل كيف مات امات من تحطم الكأس ام مات لان الكأس كانت محطمة ؟ تشنجت شرايين قلبه ولم تكن هيلفا الى جانبه تمسح عرق الوجع الخانق عن جبهته ولا كأس هيلفا بمتناول يده يسقى بها فيشفى كما سقي بها مرات فشفي . لم اكن بالقرب من الدكتور رشيد حين قضى ، فقد كنت في غيبتي الطويلة فلما عدت تلفت الى الحي الذي كانت تقوم في زاوية منه عيادته فلم اشهد طلعته ولا سمعت ضحكته . وكان ذلك قاسيا علي ، جد قاس . خيل الي اني حضرت معه ساعة النزع في نوبة الخناق هذه التي قتلته ، واني لمست بيدي حبل الوجع الممتد من قلبه الى اظفر خنصر كفه اليسرى . اي دواء من اية كأس ما كان ليشفيه ، هكذا قال اصدقائي واصدقاؤه من الاطباء الذين قرأوا مخططات قلبه فقالوا بان نوبة ثالثة من نوبات الخناق هي بالنسبة اليه نوبة قاضية . فاذا لم يكن وجود تلك الكأس قادرا على انتزاعه من بين فكي الموت فلا شك بان تحطمها كان ايذانا بتحطم حياته . حطام كأس هيلفا كان صورة مسبقة لحطام قلب صديقي الدكتور رشيد بل كان قلبه محطما . لعل ايماني بهذا هو الذي يجعلني احرص على ان احتفظ من صديقي الذي مات في غيبتي بشظية من قلبه ، شظية من الكأس المحطمة دسستها في جيبي تلك الامسية ، تلك الشظية التي تحمل اسم هيلفا .

الرقة – سوريا عبد السلام العجيلي

حرمان

*

لخليل حاوي

الجامعة الامريكية ببيروت

في ليالي الضيقِ ، والحرمانْ
والريح المدوّي في متاهات الدروبْ ،
من يقوّينا على حمل الصليبْ ؟
مَن يقينا سأمَ الصحراءِ ،
مَنْ يطردُ عنّا ذلك الوحشَ الرهيب ،
عندما يزحفُ من كهف المغيب
ويلتفُّ الشارعَ المحمومَ والحيَّ الكئيب ،
ويثورُ الجنُّ فينا ، وتغاوينا الذنوب :
« انّ في بيروتَ دنيا
غيرُ دنيا الكدحِ والموتِ الرتيب ،
انّ فيها حانةً مسحورةً ،
خمراً ، سريراً من طيوب
للحيارى في متاهات الدروب . »

*

في هنيهاتٍ يهونُ الكفرُ فيها ،
كيف ننجو من غواياتِ الذنوب ؟
من يقوّينا على حملِ الصليب ؟؟
من يقينا وهلةَ النومِ
وما تحملُ من حمّى النهار ؟
آهِ من نومي ورؤياهُ التي
تنفضُ الرعبَ بوجهي والدمار :
مخدعي ظلُّ جدارٍ يتداعى ،
ثم ينهارُ على صدري الجدار ،
وغريقاً ميّتاً أطفو على دوّامةٍ جرّى
ويعميني الدوّار .
آه والحقدُ بقلبي مصهرٌ يرشحُ كبرتاً وقار ،
ويدي تمسكُ في خذلانها
خنجرَ الغدرِ وسمَّ الانتحار !
ردَّ لي يا صبحُ وجهي المستعار !
ردَّ لي ، لا ، أي وجه ؟
وجحيمي في دمي كيف الفرار ؟
وانا في الصبحِ عبدٌ للطواغيت الكبار
وانا في الصبح شيء تافه ، آه من الصبح
وجبروت النهار !!

*

أنجرُّ العمرَ مشلولاً مدمىً
في دروبٍ هدّها عبء الصليب
دون جدوى ، دون ايمان بفردوس قريب ؟
عمرُنا الميّتُ ما عادت تدمّيه الذنوب
والنيوب ،
ما علينا لو رهنّاهُ لدى الوحشِ الرهيب ،
او لدى الثعلبِ في السوق المريب ،
وملأنا جوفَنا المنهومَ من وهجِ النضار
ثم نادمنا الطواغيت الكبار :
فاعتصرنا الخمرَ من جوع العذارى
والتهمنا لحمَ اطفالٍ صغار ،
وغفونا غفوَ دبٍّ قطبيٍّ ،
كهفهُ منطمسٌ أعمى الجدار

نظرية افلاطون في الشعر

بقلم يوسف الخال

يجدر بنا ، قبل معالجة نظرية افلاطون في الشعر ، ان نشير بايجاز الى نظريته في الانسان والموجودات ، ثم الى مكانة الشعر عند الاغريق .

نظريته في الانسان والموجودات :

ينقسم الانسان ، في راي افلاطون ، الى قوى ثلاث : القوة العقلية ، والقوة الحماسية ، والقوة الشهوانية . فالاولى أشرفها ، والثالثة احطها ، اما الثانية فتساند القوة العقلية في فرض سيطرتها على القوة الشهوانية . وبذلك فقط يصبح في مقدور الانسان ان يكون عادلا ، او ان يعاين مثل الخير والحق والجمال .

ويرى افلاطون ، بصدد الموجودات ، ان المثل موجودة ، بل اعرق في الوجود من الحسيات . فالجمال ، مثلا ، موجود في عالم المثل الازلية ، وهو اعرق وجودا من اي مظهر جميل . وهكذا قل عن سائر المثل كالعدل ، والخير ، والحق . ويعود خلود المثل الى كونها جزءا لا يتجزأ من العقل الالهي الخالد . وليست الاشكال التي تتخذها في عالم الحسيات الا خاضعة لارادة ما وواقعة تحت رحمة الزمن والفناء .

مكانة الشعر عند الاغريق :

كان الشعر عند الاغريق مصدر المعرفة . فالشاعر انسان موهوب يجمع في شخصه كل المعارف ، من اساطير ودين وفلسفة وتاريخ . وكان « هومر » و « هزيود » في نظر الشعب ، سيدي الشعر الاوحدين ، والالياذة مثال الشعر الفريد الخالد . وقد ادى هذا الاعتقاد الى طغيان الخيال والوهم والخرافات على الحقيقة المستندة الى التمحيص العقلي والنظر المنطقي .

وقد هال افلاطون هذا الخطر الذي يهدد الشعب ، فراح يحاول دفعه بالتفريق بين الفلسفة والشعر . وتعتبر « الجمهورية » مصدرا رئيسيا لهذه المحاولة . ويليها « الايون » و « الابولوجيا » .

ففي « الجمهورية » يعالج افلاطون مشكلة الشعر في الكتاب الثاني والثالث والعاشر . ففي الكتاب الثاني ينتقد الشعراء الاقدمين ، وفي طليعتهم « هزيود » و « هومر » للروايات الخيالية والخرافات المضللة التي رووها عن الالهة والابطال ، ناهيك بتمثيلهم تمثيلا لا يليق بهم ولا يصلح ان يكون قدوة حسنة للنشء الجديد . ومن الخطأ القول ان الالهة تشهر حربا بعضها على بعض ، او تنصب المكائد وتتباغض فيما بينها . وليس من الحكمة في شيء ان يزعم « هومر » وقوع نزاع بين الابطال والالهة ، او بين مختلف الاقارب . وما ذلك الا لان هذه الاعمال غير مقدسة ولا تليق بالالهة والابطال . ثم انها خطر على الدولة ، سواء اصيغت في قالب الحقيقة ام في قالب المجاز . فالطفل لا يميز بين الحقيقة والمجاز ، وعقله عرضة لرسوخ الخطأ فيه بحيث يصعب انتزاعه فيما بعد . ومن الواجب اذن ، الحرص على ان لا يكون فيما يسمعه الاحداث ما ينافي تهذيب النفس على الفضيلة ومكارم الاخلاق . وليست اوصاف « هومر » للالهة سوى اوصاف خاطئة . فالله صالح ، بل مصدر الصلاح . وهو اصل السعادة والخير ، ولا يتغير لانه كامل . فالكمال لا يعوزه التغير الى الاحسن او الى الاسوأ . وهو لا يكذب ويخادع لانه كلي النقاوة وعنوان الحق في القول والفعل .

ثم يتابع افلاطون في الكتاب الثالث نقده للشعر ، فيضع القوانين التي ينبغي أن يخضع لها الشعراء ، مستشهدا بابيات من « هومر » . فيقول ان على الشاعر ان لا يشجع خوف الموت في قلوب الناس ، باخبارهم ان الحياة ، في العالم الآتي ، مظلمة ، وان الذل افضل من الموت ، وعليه ان لا يذكر الاسماء المخيفة المرعبة ، وعويل مشاهير الابطال وندبهم ، وعدم اكتفاء الخير بنفسه ، وتذمر الالهة وتحقيرهم . ذلك لانه اذا اصغى الشبان اصغاء جديا الى اقوال كهذه ، ولم يهزؤوا بها كاوصاف سخيفة ، ندر ان يحترم احد منهم نفسه كرجل ، ويترفع عن النواح والعويل لاقل مصيبة ، والضحك المفرط الذي ينتج عنه رد فعل سيء ، والكذب الذي لا يجوز الا للحكام في مخادعة الاعداء او اقناع السكان بما هو لخير الدولة ، وعدم اطاعة الحكام ، وقمع الشهوات التي تستلزم الاسترسال في الطعام والشراب والهوى . وكذلك ينتقد افلاطون « هومر » لقوله : ان اكثر الناس سعداء مع انهم غير عادلين ، وان العادلين تعساء ، وان فعل الشر يفيد كثيرا اذا خفي امره ، وان العدالة تفيد الغير وتضر فاعلها .

ثم ينتقل افلاطون الى فحص القصص وبحث الصيغة اللازمة لها ، فيرى ان الشعر ينبغي ان يكون اما تمثيليا صرفا ، كما في المأساة او في الملهاة ، او قصصيا صرفا كما في خمرية باخوس ، او مركبا من النوعين كما في الشعر القصصي .

ويقرر افلاطون انه لا يمكن للشخص الواحد ان يجيد محاكاة أشياء عديدة في وقت واحد ، ولذلك فعلى المحاكي ان يقتصر على ذوي الصناعات السامية المحترمة . اما الاسلوب في التاليف والالقاء فينبغي ان يكون بسيطا فعالا .

وعلى الشعراء ان يتقيدوا بهذه البساطة في الاغاني والالحان والالات الموسيقية مع الابتعاد عن كل ما يبعث الميعان والخمول في عقول الشبان . ويختم افلاطون بحثه بتبرير وضع هذه القوانين . فيزعم ان الغاية منها تربية الجيل الطالع على الشعور بالجمال والانسجام والاتزان ، لانها صفات تؤثر في سجيتهم وفي علاقة بعضهم بالبعض الاخر .

اما في الكتاب العاشر ، فيعالج افلاطون الشعر معالجة كيانية محضة . فيبني نقده الفلسفي على النقاط التالية :

اولا — الشعر التقليدي مضر بافهام سامعيه ، ولاسيما الذين ليس لهم علاج شاف مبني على معرفة طبيعة الشعر معرفة حقيقية .

ثانيا — الشاعر مقلد ، كالرسام ، فهو يرمي ليس الى تقليد الطبيعة الحقيقية للاشياء الحقيقية ، بل الى تقليد الطبيعة الظاهرة لظواهر الاشياء ، او بعبارة اخرى ان الشاعر يرمي الى تقليد الخيال وليس الى تقليد الحقيقة : فالخوان الذي يصنعه النجار انما هو نسخة عن مثل الخوان . فالرسام اذ يرسم الخوان انما ينسخ ليس مثل الخوان الذي هو الحقيقة بل الخوان الذي هو ظاهر الحقيقة . ومثل هذه الطريقة التقليدية يتبع الشاعر في نظمه الشعر للتعبير عن الحقائق .

ثالثا — الشاعر المقلد لا يعرف الحقيقة ، ذلك لانه لو كان فاهما طبيعة الاشياء التي يقلدها لوجه نحو الاعمال الحقيقية جهدا اعظم جدا من جهده في تقليدها ، ويسعى الى ترك آثار جليلة من شانها تخليد ذكراه . فلئن كان ما وصفه « هومر » من حروب وادارة مدن وتهذيب سلوك ، هو من صنع الحقيقة لا من صنع الخيال ، فاي المدن مدينة له بحسن نظامها ، او اية حرب في عهده انتهت نهاية سعيدة بقيادته ومشورته ؟ ثم هل قيل عن « هومر » وهو الذي وصف صنوفا عديدة من الاختراعات ، انه استنبط شيئا من الاختراعات الصحيحة ، كطاليس مثلا ، تتعلق بالفنون المفيدة او باشياء عملية اخرى تثبت انه كان يفهم حقيقة تلك المخترعات ؟ وهل روي عن هومر انه قام في حياته بتهذيب الناشئة والتأثير عليهم كما فعل فيتاغورس مثلا ؟ ولو كان هومر او هزيود قادرا على تهذيب الناس اما كانوا يحرصون عليهما ، ولا حرصهم على الذهب ، ويحملونهما على الاقامة بينهم عوضا عن التنقل من مكان الى آخر ؟ افلا نستنتج من كل هذا ان جميع الشعراء مقلدون وانهم نسخوا صورا خيالية في كل ما نظموا ، وانهم لم يلمسوا الحقيقة في قليل او في كثير ؟

رابعا — الشاعر كالرسام ، يبهر الجاهلين امثاله بموسيقى شعره ، ورنة قافيته ، وبديع لفظه ، وهو يحوز على اعجابهم به لانهم يعتمدون في حكمهم على البلاغة والبيان والموسيقى . فاذا جردت الشعر من هذه المظاهر البراقة ، فانه يبدو حقيرا ، عاريا من كل جمال ورونق .

خامسا — الشاعر المقلد لا يعرف شيئا عما يقلد ، ولا يمتلك رايا صحيحا في ما يقلده . فالتقليد عنده مجرد لهو وتسلية لا عمل جدي . ففي مسالة صنع اللجام مثلا ، هناك ثلاثة فنون متمايزة : الاول ، استعماله ، والثاني : صنعه ، والثالث تقليده . فالذي يستعمل اللجام يكون اعرف العارفين به ، فهو يخبر صانعه فيما اذا اجاد صنعه ام اساء ، والصانع يصبح له راي سديد في هذه الصناعة لارشاد المستعمل الخبير له . اما المقلد فلا يمتلك لا معرفة فنية ناشئة عن استعمال اللجام ، ولا رايا سديدا ناتجا عن علاقته الضرورية بالمستعمل الخبير به وارشاده له ، فهو يسير في تقليده بالرغم من الجهل الذي يتصف به فيما يتعلق بما يقوم به جمال الشيء او قبحه . ولكنه ، حسب الظاهر ، يقلد اوصاف الجمال المبهمة الرائجة عند جمهور الاميين .

سادسا — التقليد يتناول ما بعد جدا عن الحقيقة ، وهو لا يختص بالقوة العقلية في الانسان التي هي اشرف قواه الثلاث ، بل يختص بالقوة الابعد فيه عن الحكمة ، وذلك لانه يعتمد على مجرد الظواهر ، والظواهر قد تكون خلاف الحقيقة ، كالاشياء ، مثلا ، التي تظهر عوجاء في الماء ومستقيمة اذا اخرجت من الماء . وهنا تعرف اهمية المقاييس كالوزن والعد والقياس للاشياء المادية ، كالعقل وحده في المسائل الفكرية .

سابعا — ليس للمقلد علاقة في خلق النفس الهادىء المطمئن ، فعمله ينحصر في الخلق الحزون المتقلب لانه يسهل عليه تقليده ، ذلك لانه يمت الى القوة الدنيا في النفس الانسانية ، وهي التي تستنهضنا للافتكار بالمصاب والحزن حين حلوله ، والتي فيها جوع للندب والعويل والجبانة . ثم ان الشاعر ، كالرسام ، يورد التافهات من الامور اذا قيست بمقياس العقل ، ويواصل القوة الشهوانية التي تشبهه ، فيثيرها ، ويغذيها ، ويقويها ، ويهدد القوة العقلية في الانسان . والشاعر كالرسام يشدد بصفة كونه انسانا عزائم اسافل القوم في الدولة ويقلدهم السلطة العليا ، وفي الوقت نفسه يقضي على الفئة المهذبة . وفوق ذلك ، فهو يلفق اوهاما بعيدة عن الحقيقة .

ثامنا — الشعر يروي العواطف التي ينبغي ان تجف عطشا ، وينعشها ويحكمها في الانسان ، والاجدر به ان يتحكم هو بها ، اذا رغب في ان يعيش حياة اسعد وارقى .

تاسعا — يباح الشعر في الدولة ، شريطة ان يختص في تسبيح الله ومدح الصلاح . ولكن اذا ابيح تعظيم عرائس الشعر الغنائي والقصص الخرافية ، تحكم الالم واللذة في الدولة عوضا عن ان تتحكم الشريعة والمبادىء الاكثر انطباقا على حكم العقل باجماع الاراء في كل العصور . واذا فعلنا كذلك ، فانما نحن نخضع لسلطة العقل .

عاشرا — هنالك صراع قديم بين الشعر والفلسفة ، والى ان يبرهن الشعر على أن اتهامات الفلسفة غير عادلة ، ينبغي للفلسفة ان تعزل الشعر من الدولة الفاضلة .

اما في دفاع سقراط ، وكتاب الايون ، فيعرب افلاطون عن اعتقاد اخر في الشعر لم يتعرض اليه بوضوح في « الجمهورية » وهذا الاعتقاد هو أن الشاعر لا ينظم الشعر بعامل الحكمة ، بل بعامل العبقرية والالهام . فيشبهه بالسحرة الذين يقومون باعمال جليلة ولكنهم لا يفهمون اي معنى لها . والشاعر ، كما اختبر افلاطون على لسان سقراط ، يظن نفسه كلما تبينت له روعة الشعر الذي ينظمه ، انه اكثر المخلوقات حكمة حتى في الامور التي لا يملك اقل حكمة فيها .

بقلم ت.س. اليوت

الشعر الحر والشعر الصعب . الصحافة والادب

ترجمة منح خوري

مهداة الى مارون عبود

°°°

الشعر لا يكون حرا لمن اراد ان يعمل عملا فنيا متقنا . واني من اكثر الناس علما بان مقدارا وافرا من النثر الرديء قد صيغ باسم الشعر الحر : اما فيما اذا كان اصحابه قد كتبوا نثرا رديئا او شعرا رديئا ، او شعرا رديئا باساليب مختلفة ، فأمر لا يعنيني . الشاعر الرديء وحده يمكنه ان يفهم الشعر الحر على انه تحرر من الشكل. لقد كان هذا الشعر يوم ظهوره ثورة على الشكل البالي ، وتمهيدا لشكل جديد او بعثا لشكل قديم . لقد كان تأكيدا على خصوصية الوحدة الداخلية التي تتفرد بها كل قصيدة مقابل التأكيد على الوحدة الخارجية العامة . ان القصيدة تسبق الشكل بمعنى ان الشكل ينشأ عن محاولة احدهم ان يقول شيئا ، تماما كما ينشأ احد الانظمة العروضية عن استقراء اوجه الشبه بين اوزان متعددة لطائفة من الشعراء المتأثرين ببعضهم البعض .

يجب تكسير الاشكال الشعرية واعادة صنعها : ولكني اعتقد بان اية لغة ، ما بقيت لها ذاتيتها ، تفرض قوانينها ، وقيودها ، وتأذن بجوازاتها ، وتملي ايقاعاتها وانماطها الصوتية ، واللغة دائمة التطور ، وتطورها في المفردات ، والتراكيب ، والنطق ، والتلوين الصوتي ، وحتى في انحلالها على المدى البعيد ، كل هذا يجب ان يتقبله الشاعر ويفيد منه جهده . ثم ان للشاعر بدوره حق المساهمة في تطوير اللغة والحفاظ على ابرز خصائصها حتى تتوفر لها امكانيات التعبير عن ارحب المشاعر والانفعالات وادقها ، فمهمته مزدوجة اذ عليه ان يستجيب للتطور ويعيه ، وان يصارع ضد الانحدار الى ما هو ادنى من المقاييس الموروثة عن السلف . اما الحريات التي قد يمارسها فيجب ان تكون من اجل النظام وفي سبيله .

الشعر الصعب : من الممكن رد صعوبة الشعر ـ والافتراض ان يكون الشعر الحديث صعبا ـ الى عدة اسباب : اولا : اسباب شخصية يتعذر معها على الشاعر ان يعبر عن نفسه دون غموض . ذلك مؤسف ، ولا شك ، ولكن الشاعر قد استطاع على كل حال ان يخرج من الحبسة الى شيء من الابانة . ثانيا : دافع الرغبة في التجديد : فنحن نعرف ما لقيه الشعراء المجددون من السخرية كوردزورث وشلي وكيتس وتنسون وبرونتغ (الذي كان اول من لقب بالشاعر الصعب) ؛ وما لقيه كذلك من سبق هؤلاء الشعراء من التهجين والتسفيه لصعوبة شعرهم في راي نقادهم المعاصرين . ثالثا : قد تكون الصعوبة ناتجة عن تخوف القارىء ، (التخوف الذاتي او الموحى به) من صعوبة يتصور وجودها مقدما فيما سيقراه من الشعر . هذا التخوف الجاهز يضع القارىء في حالة من الذعر لا تتلاءم مع عملية تقبل الشعر والاقدام على تذوقه : فهو بدلا من ان يقبل عليه كما يجب بحالة شعورية مؤاتية ، تراه يخبل احساسه بنوع من الذكاء

ثم يتناول افلاطون في الايون هذه الفكرة نفسها تقريبا ، فيزعم ان كل الشعراء المجيدين ، اغنائيين كانوا ام قصصيين، ينظمون اشعارهم الجيدة، ليس كنتاجات فنية ، بل لانهم يقعون تحت سيطرة الاجواء الموسيقية والسجعية التي تعطل تفكيرهم ، وتسلب عقولهم ، وتغمرهم في حالة وحي والهام . واذا لم تسيطر على الشاعر هذه الاجواء فمن المحال ان يستطيع قرض الشعر . ومما يدل على ان الشاعر لا ينظم بعامل الفن ، بل بعامل قوة الهية ، هو انه لا يجيد غير نوع واحد من انواع الشعر . وفوق ذلك فان الله ينتزع عقول الشعراء ، ويقيمهم خدمة له كما يفعل بالانبياء والقديسين ، حتى اذا سمعهم الناس ادركوا بانهم لا يتكلمون هم انفسهم ، بل الله يتكلم بواسطتهم .

ومن الغريب ، ان يعتقد افلاطون ، كما اعتقد قدماء العرب بان لكل شاعر شيطانه، او كما سماه «عروس شعره» الذي يلازمه كظله ويوحي له اشعاره . وعلى ضوء هذا الاعتقاد ، يظهر افلاطون لايون ان هومر هو «عروس شعره» ولذلك فهو معجب بشعر هومر اعجابا يبلغ حد الالهام ، ويجعله عديم الاهتمام بغيره من شعراء الاغريق .

هذه هي خلاصة النظرية التي قدمها افلاطون في الشعر ، محاولا ان يقف بها سدا منيعا في وجه طغيان الشعر في العالم الاغريقي ، فجاءت اول نقد فلسفي للشعر في تاريخ الفكر البشري . ولعل قيمتها الاخيرة مستمدة من كونها نقدا للشعر السائد في زمن افلاطون اكثر من كونها نقدا للشعر من حيث هو احد الفنون الجميلة .

يوسف الخال

المصطنع ويهدر جهده في البحث عن شيء في القصيدة — ليس يدري ما هو — او تراه يتأبى القصيدة ويزور عنها . هناك نوع من الفزع يسمى « الفزع المسرحي » اما ما ينتاب صاحبنا فنوع من « الفزع الدهليزي » . ان القارىء المتدرب ، ذاك الذي بلغ في تذوقه حالة من الصفاء الاسنى ، لا يهتم في البدء على الاقل ، بفهم القصيدة ولا يأبه له . ففي تجربتي ان بعض ما يستهويني من الشعر فانصرف اليه بكليتي ، هو شعر لا افهمه من القراءة الاولى ، وهناك شعر كشعر شكسبير مثلا اتذوقه ولست متأكدا من فهمه حتى اليوم . رابعا تعود صعوبة الشعر اخيرا الى ما يسقطه الشاعر احيانا من اشياء كان القارىء قد تعود ان يجدها في المألوف من قراءاته ، وهكذا يترك تائها يتلمس الضائع ، ويكد الخاطر ليعثر على معنى ليس موجودا في الشعر ، ولا اراده الشاعر ان يكون موجودا .

قد تكون فائدة المعنى الرئيسية في القصيدة (والكلام هنا على بعض انواع الشعر فقط) ان يرضي عادة من عادات القارىء ويكفيها وان يبقي على فكره ساليا مطمئنا بينما تكون القصيدة خلال ذلك تشيع في نفسه وتفعل فعلها فيها . كذلك يلهي اللص الطارق كلب الدار النابح بقطعة من اللحم ليمضي بعد ذلك الى عمله ويستولي على ما يشاء من الغنائم . تلك حال طبيعية لا بد لي من اقرارها. غير ان بين جماعة الشعراء من لا يفكر هذا التفكير . فبعضهم يفترض بأن هنالك لدى الناس عقولا كعقولهم ، ولذلك تراهم يضيقون ذرعا بذلك « المعنى » ويرون في اسقاطه من شعرهم مجالا لتركيزه وتجويده . انا لا اقول بمثالية هذا الاتجاه ، ولكني ارى من الضروري ان ننظم شعرنا كما نستطيع ان ننظمه ، وان نأخذ هذا الشعر اخذا طبيعيا كما نجده في واقعه ؛ فقد يكون السهل المطلق من قوالب الشعر هو الشكل الملائم لبعض الادوار في حياة المجتمع ، وقد يكون الشعر المركز هو الشكل الانسب لبعض الادوار الاخرى . ولعل هناك كثيرين ممن يشعرون بان تأثير بعض كبار شعراء القرن التاسع عشر ، قد تضاءل لضخامة انتاجهم . فمن منا يقرأ اليوم لمجرد اللذة ، المجاميع الشعرية الكاملة «لوردزورث» و « شلـي » و « كيتس » و « بروننغ » و « سونبرن » واكثر الشعراء الفرنسيين في ذلك القرن ؟ وهذا لا يعني في اي حال ، بأن « القصيدة الطويلة » هي من اشياء الماضي ؟ ولكني اعتقد بضرورة احتوائها بالنسبة الى طولها على اكثر مما ضمنها السلف . اما نحن ، فحيث يمكننا التعبير عن شيء ما بالشعر او النثر على السواء ، فالنثر اولى بمهمة الاداء وافضل . ان نظرية « الفن للفن » التي اسيء فهمها والتي ذاعت اكثر مما طبقت فعلا ، يكمن وراءها هذا الدافع الحق : انها اعتراف بغلطة الشاعر الذي يحاول ان يقوم بعمل غيره من الناس . غير ان الشعر في ادب كل امة ينبغي ان يفيد من النثر بقدر ما ينبغي ان يفيد من الشعر في آداب الامم الاخرى ، وفي يقيني ان التفاعل بين النثر والشعر ، كالتفاعل بين لغة ولغة ، شرط من شروط الحيوية في الادب .

الصحافة والادب

غير مجد ان نفصل الصحافة عن الادب على اساس القيم الادبية وحدها للتمييز بين الجيد والاجود من الآثار الكتابية . فالرواية الضعيفة ليست من الصحافة في شيء ومن المؤكد انها ليست ادبا . لقد انحطت كلمة « الصحافة » في المدة الاخيرة ، ولا بد في هذا المجال من ان احاول رد تلك الكلمة الى مدلولها الاصيل . يمكننا ادراك المعنى الصحيح الشامل لهذه الكلمة بتقديرنا للحالة الفكرية ، ولنوع الفكر المتصلين بكتابة ما يعتبره الجميع الصحافة الفضلى . هناك نوع من التفكير لا يعنى بالتعبير اولا ينتج اجود آثاره الكتابية الا استجابة لالحاح مناسبة مباشرة . هذا هو في اعتقادي الفكر الصحفي . وقد تكون الاسباب الكامنة وراءه مختلفة : فالانهماك الشديد في الاحوال القائمة ، وقوة الاستمرار (كما هي الحال عندي) او الفتور الذي يحتاج الى حافز مباشر ، او عادة دعت اليها ضرورة الكسب اليسير العاجل ، هذه كلها قد تكون اسبابه الخفية غير ان احتمال وجود الفارق بين الاديب والصحفي لا يعود الى ان المادة التي يعالجها الصحافيون هي غير المادة التي يتناولها الكتاب ، وانما يعود الى ان الدافع الذي يحفز اولئك على العمل هو غير الدافع الذي يحفز هؤلاء وكثيرا ما يكون الحافز الصحفي اسمى وانبل .

يعاب على الصحفي احيانا اتصاف انتاجه بالقيمة العابرة . وذلك لان الغاية من المقال الصحفي احداث التأثير القوي المباشر ، والانتهاء بعد ذلك الى عتمة النسيان الابدي . الحق اننا عندما نأخذ بهذا الراي نكون قد تغاضينا عن الاسباب المؤدية الى زوال الآثار الكتابية ، وعن المدلول الواسع لصفة الزوال هذه ، ونكون قد اغفلنا كذلك شأن المصادفات التي تحفظ بعض الآثار الكتابية من النسيان ...

منح خوري

مع الربيع

الى التي جاءت مع الربيع في اول يوم من نيسان

○

لا اعتباطاً
ولا مصادفة
أن تكوني
على موعدٍ
معَ الرَّبيعْ ...
وأن تجيئي
من نيسانْ
درّةَ التاجِ
والصَّولجانْ ...

✶

من صميم الحياةْ
أن ينشر الربيعُ شذاهْ
فتكوني ...

✶

طابَ نيسانُ مَقدِماً
وأنتِ على فمهِ
ابتسامةُ نورْ ...
وفي قلبهِ
زغرودةُ الشحارير ...
وطيبُهُ ؟...

(يا لطيبِ نيسان !)
بعضُ شذاكِ

✶

بحَّت حناجرُ العنادلْ
تغنّي الربيعْ ...
والغناء في صدرها حشرجات
واصفرَّت براعمُ الزنابقْ
والشوقُ من قلبها
يمصُّ الحياة ...
فكنتِ
وكانَ الطّيبُ والنّدى
وكان الدفءُ والهوى ...
وكان نيسانْ
درّةَ الدهر
وزنبقةَ الزمانْ

✶

من صميمِ الحياةْ
أن ينشر الربيعُ شذاهْ
فتكوني ...

موسى سليمان

ادب النقـد

بقلم الدكتور كمال اليازجي

كنا نود ، في مطلع هذا البحث ، ان نتخطى الكلام في اهداف النقد لولا ما يكثر في منشوراتنا الدورية من عبث في تلك الاهداف . فالنقد لا يجـوز ان يكون اداة للتشفي ، ولا وسيلة الى التشوف والاستعلاء ، ومن امتطاه الى هذا الغرض لم يأمن المزالق .

والنقد غير الانتقاد ، وهو غير التقريظ ، بل هـو مؤلف منهما معا ، على ان يجيء كل منهما في المكان اللائق به . ذلك ان الانتقاد وحده نقد هدام ، والتقريظ وحده نقد متملق . والنقد الصحيح ينبغي ان يكون حرا صادقا بناء ، وان ينبعث من النفس بعامل الرغبة في احقاق الحق وابطال الباطل ، وبدافع تعميم الفائدة وخدمة المصلحة الجماعية ، لا تلمسا للتشفي ، ولا استجابة لداعي الاستعلاء

والنقد في الاداب وسائر الفنون ضرورة تستتبعها شخصية الاديب من جهة ، وموضوع الادب من جهة ثانية . فشخصية الاديب تتأثر بعوامل كثيرة : منها الذوق والتربية والاطلاع والظروف العامـة ، والتجربات الخاصة ، فتجيء من ثم اراء الادباء متباينة واحيانامتضاربة. والادب بمعناه الواسع صورة للحياة واقعية او مثالية ، حقيقية او وهمية . وهو بدوره وليد التيارات الفكرية والاجتماعية والنفسية التي تضطرع في الحياة ، وتحدو المجتمع من طور الى طور . فالنقد والحالة هذه ثمرة حتمية من ثمار الادب الحي ، ودليل بين على الوعي والنباهة ، وشاهد غير مردود على الرغبة الاكيدة في ما هو افضل .

والنقد مقاييس وقواعد نتجاوز عن بحثها الى النظر في كيفية استخدامها . وهو ما سميناه بادب النقد . فللنقد ــ على اختلاف اصوله وتباين مقاييسه ــ ادب لا بد من التقيد به لكي تتحقق الاهداف المنشودة بما يمكن من اليسر والانصاف .

كل من زاول قراءة المجلات الادبية قد لاحظ ، ولا شك ، بروز الظاهرة النقدية في ما تنشر . ولقد آنس القيمون على الصحافة الادبية ما في النقد والرد من اثر في الاصلاح ، فعمدوا الى افساح المجال في صدور مجلاتهم لهذا النوع من العلم الادبي الرفيع . على اننا اذ نحمد للصحافة الادبية هذه البادرة الطيبة لا يسعنا ، حبا للحق وحرصا على اطراد التقدم ، ان نغضي عن عثرات النقاد فيما دعوناه بادب النقد . فانما يتعلم المرء من اخطائه ، والخطأ الذي يهدي الى سواء السبيل نعمة وبركة لا زلة ولعنة . ولقد آثرنا أن نكون واقعيين فبنينا كلامنا على نماذج واقعية عرضت لنا في ما طالعناه من المقالات النقدية. ولما لم يكن غرضنا ذا صلة بالشخص الناقد ولا بالمنقود اضربنا عن ذكر الاسماء .

ابرز آفة في ادبنا النقدي ارسال الحكم الجارف . فالحكم الجارف لا فائدة منه ولا خير فيه . وانما هـو يعود على صاحبه بالغضاضة . والامر كـذلك تقريظا كان الحكم ام انتقادا . ولقد اطربني في هذا الصدد قول احد كبار نقادنا بحق زميل له نقد كتابا فاقتصر في نقده له على التقريظ ، قال « فكم كنت اتمنى ان يتجاوز الاستاذ (فلان) حدود التقريظ ، فالتقريظ الصرف يثير في نفس المستمع شكا : ترى ألم يعثر ولو على هنات هينات يشير اليها ؟ ... لقد كان الاستاذ ... معلنا عن الكتب الحديثة لا ناقدا لها فليته يقسي قلبه في قابل ، فآفة كتبنا قلة النقد لها ... » على أن هذا الناقد بالذات قد وقع في خطأ التقريظ حيث علق على حديث اديب اخر بقوله : « وتحدث (فلان) عن (فلان) ... فاخرج صورة كاملة ناتئة الخطوط بينة الملامح لذلك المجاهد العظيم » . واي اديب يستطيع ان يرسم صورة كاملة لمجاهد عظيم ؟ ترى الم يستطع صاحبنا بدوره ان يعثر ولو على هنات هينات يشير اليها ؟...

اما الانتقاد الجارف فنظير ما جاء لاحدهم في قصة كثر قول النقاد فيها وتباينت اراؤهم في الحكم لها او عليها ، اذ قال « القصة (الفلانية) محاولة فاشلة لا تعتمد على اي اساس من الاسس الضرورية لكل قصة » .. ترى الم يعثر على حسنة ما يروح بها عن نفس المؤلف ويعزيه ولو عن جانب من عنائه ؟ ! هذه الاحكام الجارفة تقريظا كانت او انتقادا لا خير فيها ولا فائدة منها ، لان مجرد التقريظ لا يساعد على تدارك النقص ، وفرط الانتقاد لا يشجع على المضي في التحسين .

وآفة ثانية من آفات ادب النقد عندنا توجيه الاهتمام الى المؤلف بدلا من الاثر الادبي . ومهاجمة الشخص بدلا من تمحيص الموضوع . مثال ذلك ما جاء لاحد الادباء في نقد قصة عربية قال : « ان كتاب القصة العرب هم في الحقيقة في مؤخرة ركب كتاب القصة العالميين ، وان (فلانا) [ويقصد به صاحب القصة] في مؤخرة كتاب القصة العرب » . ترى ؟ ماذا يستفيد القارىء من هذا التشهير حقا كان او باطلا اللهم الا سوء الظن بانصاف الناقد!

ومن هذا القبيل ما جاء لاحد النقاد في مؤلف اخرجه اديب من اعلام الادب المعاصر قال : « ان الاشكال الفكري الذي يعانيه (فلان) في معظم ما كتب هو انه لا يستطيع ان يدرك حتمية الاحداث في التاريخ البشري ... وعلى ذلك [فهو] لا يسير في هدى فلسفة من الفلسفات كي يتمم بها انسجام نظرته الى الحياة والكون ... فهو يستنجد احيانا بنشر الالفاظ وطيها ، والاهتمام بالالفاظ وحتى بالخرافة ليثبت ما ينتهي اليه من باطل التعليل » . ثم يختم نقده بقوله « واخيرا فقد خسر (فلان) في كتابه هذا كما يخسر المبطلون في كل حين ، اذ كشف لنا فيه أن مقدار لسانه فاضل عن مقدار علمه ... ولو اعتصم بالصمت لكان ابلغ » . اسألك بالله اي خير لجمهور القراء في الوقوف على امثال هذه المهاترات . او لم يكن الاجدى بالناقد ان ينقض مزاعم المؤلف باسلوب علمي ولهجة رصينة !

ومن عثراتنا في ادب النقد اننا كثيرا ما نتخلى عن اللباقة . نعم ان الناقد يضطر احيانا ــ خدمة للحق ــ ان يكون عنيفا ، لكن الناقد اللبق يستطيع قول ما يريد دون أن يكون فظا جارحا كان يورد الحكم بصورة راي شخصي له أو مزعم يأخذ به او ترجيح يؤثره بالاعتبار ؛ او يورد الانتقاد بصيغة الاستفهام المعجز ، او يقيس الامر بما هو ظاهر البطلان ، او يستعين بالتهكم المطوي . ولسنا ندعو ــ

في ذلك — الى تغليف الحق بالباطل ، او تشويه الصراحة بالملق ، بل الى تهوين الخطب بحيث يتجلى للمخطىء خطاه ، ويتاح له سبيل الرجوع عنه بيسر ، فينتفع بذلك هو والجمهور ، ويقطع دابر الجدل العقيم والمهاترة المكروهة .

تتجلى هذه اللباقة في ما جاء لاحد نقادنا في شاعرة معاصرة قال : « وانشدت الشاعرة (فلانة) قصيدة عنوانها (كذا) فكانت مطبوعة على غرار قصائدها الرائعة ، حافلة بالعاطفة المتقدة . ولو كنت من البكائين لاسعفتها ولو بدمعة ، ولكن ما حيلتي بدمع كدمع ابي فراس ؟ ! » فقد اراد الناقد ان يحمل على الشعر الباكي فآثر لوم عينيه وتشبه بابي فراس حيث يقول :

اراك عصي الدمع شيمتك الصبر ...

ولا يخفى ما في ذلك من تهكم رقيق مطوي . وفي تعليق له على حديث قال : « اما قول الاستاذ ان المراة اعمق فهما لرسالة الحياة فاشك فيه ، والحوادث لا تكذبني » . فقد قال « اشك فيه » ولم يقل « اقطع ببطلانه » ولا حكم على صاحبه بالميوعة والجهل . ثم دعم حكمه بقوله « والحوادث لا تكذبني » ولم يقل انها تكذبه وتكشف عن سذاجته . فهذه اللباقة قد اوصلت الناقد الى غرضه دون ان يحرج زميله . وللناقد نفسه في شاعر من المجددين : « قال الاستاذ (فلان) ان العرب لم يتغزلوا فهل يقول لي ماذا نسمي ذلك الشعر القديم ؟ واذا لم يكن ذلك الشعر غزلا فمن يقول لنا كيف يكون الغزل ؟ » فهو لم يحكم على الشاعر بانه يجهل الشعر القديم او انه لا يدري ما الغزل بل آثر ان يسأل بلهجة المستغرب اليائس وهو لا يقصد الا تجهيل الشاعر دون ان يحرجه ، ودون ان يسجل على نفسه حكما قاسيا .

ومن ادب النقد ان يكون — حيث امكن — مقترنا بالتوجيه الصالح . مثال ذلك ما جاء لناقد في كتاب اخرجه زميل له عن حياة اديبة من اديباتنا قال بعد ان اطرى الدقة التاريخية والتحليل النفسي في الترجمة : « وقد كنا نود لو أنه عرض للاديبة والكاتبة والمفكرة بقدر ما عرض للمراة . ولو انه تناول اراءها بالتحليل والنقد كما تناول شخصيتها . ولعله لم يفعل ذلك في كتابه هذا ليخصص له سفرا مستقلا يتحفنا به في مستقبل نتمنى ان يكون قريبا . » فالناقد لم يشأ أن يجسم النقص الذي وجده في كتاب زميله ، بل اكتفى بان دل عليه ودعا الى تلافيه بلباقة فائقة ، ولو عنف به وهشم اثره الادبي لالحق به الاذى ، وهدم ثقته بنفسه .

ومن هذا الباب ما ورد لناقد في قصة قال : « ومنشأ الضعف في القصة ان الزوج يروي لزوجته السابقة حكايتها كلها بتفاصيلها الوافية مع ان الزوجة تعرف هذه الحكاية ... وهذا يشعر القارىء بالتصنع في تركيب القصة . وقد كان خيرا (للمؤلفة) ان تجعل الزوج يرسل هذه الرسالة — مثلا — الى صديق له يسأله عن سر سفره الى الخارج فيروي له القصة بالتفاصيل . » فبمثل هذا التوجيه يستكمل النقد غايته .

ومن ادب النقد ان لا يضن الناقد على الادب المنقود بكلمة تشجيع . فاذا فعل فليبدأ بالانتقاد وليختم بالاطراء . وذلك ادعى الى التشجيع ، والى رسوخ الصورة الحسنة عند القارىء . والنتاج الحري بالنقد لا يخلو من حسنة . ومن حق المؤلف على الناقد ان ينوه له بها .

مثال ذلك ما ختم به ناقد رايه في اديب بحث تاريخ الاقصوصة العربية قال : « فكلمة (فلان) تتسم بطابع التسجيل الاولي وهي اوفى الى عمل تلميذ بكالوريا منها الى دراسة باحث . وهذا وزنها في الميزان ولا ازيد . » فقد ختم نقده بهذا الحكم الصارم ومن على الباحث بوقوفه عند هذا الحد ، وسكوته عما هو اشد واخطر . فاذا لم يكن بد من قول ما قال فليجعله قبل كلمة اطراء يرفه بها عن نفس زميله . وله في موقف اخر : « ولكن لا بد من ان يحمد للمؤلف ان النزعة الانسانية تهز عددا من اقاصيصه وترقى بها الى مستوى رفيع » ... ثم يختم نقده بقوله « بقي ان نقول ان المؤلف لا يعنى باسلوبه العناية التي يقتضيها الفن في كل اثر فني . فان عباراته مفتقرة الى الجزالة والتماسك والى ان تنجو من الاخطاء النحوية الكثيرة فضلا عن المطبعية التي تفسد على القارىء احيانا جوا قصصيا ناجحا » . فقد آثر الناقد ان يختم كلمته بالتنبيه على العثرات اللغوية وكان الاولى — اذا لم ير بدا من الاشارة اليها — ان ينبه عليها في الحشو ويورد ما حمد عليه المؤلف في ختام كلمته ، كأن يقول ... ولئن كان المؤلف لم يول الاسلوب العناية التي يقتضيها الفن الا انه لا بد من ان يحمد له ان النزعة الانسانية تهز عددا من اقاصيصه وترقى بها الى مستوى رفيع » والراي واحد لم يتبدل وانما الذي تبدل هو وقعه في نفس المؤلف وخلد القارىء .

ومما وفق فيه الناقد قوله في مجموع من القصص القصيرة « لا يصعب على قارىء هذه المجموعة ان يؤمن بان مؤلفها ذو موهبة قصصية تسعى الى توكيد ذاتها سواء بالتصوير الموحي او التحليل المعبر . واذا كان ممكنا ان يؤخذ على المؤلف اقتصاره في اختيار نماذج ابطاله على وسط واحد من اوساط المجتمع ، فانه يحمد له تعمقه الشعور بالالم الذي يرزح تحته افراد هذا الوسط . ولعله موسع في انتاجه القادم الافق الذي يستقي منه . وبذلك تبلغ صوره وتحليلاته الموفقة امتدادا انسانيا ابعد » .

فقد جمع الناقد في هذا الحكم الكثير من شروط ادب النقد فتلطف في نقده اذ قال في موهبة المؤلف القصصية انه « لا يصعب على الناس الايمان بوجودها » ولم يجعل وجودها أمرا مقررا . وقال « انها تسعى الى توكيد ذاتها » لا انها لا تزال فجة تحتاج الى الصقل والتهذيب . واذ جعل اقتصار المؤلف على وسط واحد من اوساط المجتمع من ممكنات المآخذ لا من المحتمات حمده ختاما على بلاغة التعبير عن مظاهر الالم في حياة هذا الوسط ، ثم التمس لتقصيره العذر ، وافرغ بقالب توجيهي بارع اذ توقع ان يتناول المؤلف قصصه في انتاجه القادم في جو ارحب ومجال انساني اعم .

نعم ، ان على الناقد في نقده ان يضع نصب عينيه قواعد النقد الادبي ومقاييسه ، لكن هذه وحدها لا تبلغه الغاية القصوى التي يسعى اليها ؛ ولا بد له ، اذا شاء تحقيقها على افضل وجه ، من ان يراعي الشروط التي يمليها عليه ادب النقد .

الجامعة الاميركية كمال اليازجي

المؤذن

✳

هاج للنفس تباريح شجاها ... ونفى عن مقلتي طيب كراها
كبَّر الله فشاعتْ نشوة ... في السما رددتِ الارض صداها
نغم حلو تعالى داوياً ... فأعارته الدنى السمع انتباها
ذُعر الليل له فانتثرتْ ... بدداً أسدافه مما دهاها
وهوتْ ناكسةً أعلامُه ... حينما الفجر عن الافق طواها

★ ★ ★

قام والظلماء لج صاخب ... جاش ملء الارض اعجاباً وتاها
وكأن الافق عين أغمضتْ ... تحت ستر الليل تستوحي مناها
أي سحر نفث الداعي الذي ... هبَّ في جنح الدجى يدعو الالها
التسابيح التي رددها ... في الدجى فاح مع الصبح شذاها
فتنَ الدنيا فهبتْ تبتغي ... من غمار الناس ثأراً في هواها
كشفتْ للناس عن فتنتها ... حينما صاغ لها الفجر حلاها
وبدتْ كاسيةً عارية ... تخلب الالباب في زاهي صباها

★ ★ ★

هاج بي شجواً قديماً لحنُه ... خلته النار وقد شبَّ لظاها
كشف الوجد الذي ساورني ... لهبه عن ظلمة طال دجاها
وجلت نار الهوى عن ناظري ... حجب الشك وعن عيني قذاها
فرأيت الحق بالعين التي ... أنزف الشوق الى الحق بكاها
وتجلى الله للقلب الذي ... شايع الدنيا على نهج خطاها
رب عين سفر الحق لها ... فأشاحت عنه من ليل عماها
ودقيقات عن العقل خفى ... أمرها لكنما القلب وعاها
كم وراء القلب من عين الى ... حجب الغيب استشفت ما وراها

★ ★ ★

باسمك اللهم نادى هائم ... عائذاً من حرقة طال أساها
ودعتك الطير لما رُوعتْ ... من عدو عاث شراً في حماها
هتفتْ عند الضحى صارخة ... فشجت معنى وان عيَّ لغاها

دمشق — **عدنان مردم بك**

زقاق البطمة

بقلم معاوية الدرهلي
استاذ الادب العربي بجامعة درهام بانجلترا

*

ابو علي بقال مشهور في زقاق البطمة ولعل شهرته ترجع الى انه كان البقال الوحيد فيه . ولكن في هذا هضما لحقه . فقد كان ابو علي في الحقيقة رجلا محترما بفضل قدمه في الصنعة وكبره في السن وقوة شخصيته التي جعلته على مرور الزمن عميد اصحاب المهن في هذا الزقاق وسيد الحي الذي عينته الحكومة لاثبات المواليد وكتابة الشهادات وغيرها من الاعمال الرسمية .

وكان اصحاب المهن الاخرون ثلاثة فقط . ذلك ان الحي الذي يحتل فيه زقاق البطمة المكان الاول ، كان حيا صغيرا جدا في مدينة يافا وكان الزقاق سوقه الرئيسي ومركز حركته ونشاطه ان جاز ان يصحب الهدوء العام والسكون الابدي الذي يخيم على الحي حركة ونشاط .

وكان دكان ابي علي يمد الحي بما يحتاجه من ضروريات كالطحين والعدس والسمن والذرة وما يحتاجه من كماليات كذلك كالشوكولاته وغيرها من الحلوى والشاي والقهوة والسجاير . وكان دكان صالح الفوال او « مطعم » صالح الفوال كما كان صاحبه يحب ان يسميه يمد الحي بالفول المدمس والحمص والمخلل الذي يأخذونه الى بيوتهم . واحيانا كان بعض الشباب يتناولون فطورهم وغداءهم في الدكان كذلك . وكان هذا مشجعا لصالح الفوال لان يرتقي الى منصب اجتماعي اعلى بان يكون صاحب مطعم لا صاحب دكان فقط ، فافاق الناس ذات صباح واذا باليافطة الصغيرة التي كانت تعلو الدكان والتي كانت تقول « صالح الفوال » قد غيرت واصبحت تعلن للملأ ان الدكان اصبحت « مطعم صالح الفوال » ولكن هذا في الحقيقة لم يغير من طبيعة المكان او نوع الفول المدمس او راي الناس في العم صالح او في دكانه فما تغير في الواقع الا راي العم صالح في نفسه فاصبح يرى نفسه شخصية مهمة في زقاق البطمة بل كثيرا ما كانت تراوده فكرة كونه عمدة المحترفين وعماد الحي . كيف لا وهو الذي يغذي سكان الحي ويمدهم بالطعام . ولكنه لم يكن ليستطيع الجهر بهذه الفكرة فهو يصغر ابا علي سنا بكثير ، اذ انه لم يتجاوز الثلاثين من العمر بينما كان ابو علي في الخمسين من عمره . ثم انه لم يمض عليه في مهنته في زقاق البطمة اكثر من عشر سنوات وابو علي في دكانه منذ زمن لا تعرف بداءته ذلك انه ورث الدكان عن ابيه الحاج حسن . اضف الى ذلك ان ابا علي كان ابا لعلي بينما لم يكن هو ابا لاحد . حقا كان رجال الحي يلقبونه بالعم صالح احتراما له ولكنه لو كان ابا سليمان مثلا او ابا عبد الله لزادوا في احترامه وتقديره . لا مناص اذن من ان يضمر هذه الفكرة في نفسه والا يجهر بها لاحد . ولكنه اضمر في نفسه شيئا اخر . لقد عزم على الزواج لينجب ولدا بل اولادا يفاخر بهم ويعتز بعددهم ولكنه لن يتزوج الا من اسرة في نفس المنزلة الاجتماعية التي هو فيها وقد قيل له ان الحاج رمضان فران الحي لمح لبعض الناس انه يرحب بالعم صالح صهرا له . وراقته هذه الفكرة . ولم لا ؟ صحيح ان ابنة الحاج رمضان كانت ارملا ولكنها لم تزل في صباها ثم انها وحيدة ابيها والحاج رمضان مشهور بثروته فهو يملك الفرن ويملك الدار التي يسكنها . ثم انه كبير السن ومن يدري ؟ .. سترث ابنته هذه جميع ممتلكاته وقد يصبح العم صالح ـ هذا اذا تزوج كريمة الحاج رمضان طبعا ـ صاحبا للفرن والمطعم في آن واحد ، واذاك سيصبح محط انظار سكان الحي جميعهم وسيحظى باحترامهم . سيصبح عميد اصحاب المهن وستعينه الحكومة مختار الحي لا محالة . هذه كانت افكار تراود العم صالح الفوال . ثم خطر بباله شيء اخر كان قد نسيه . ان الحاج رمضان يمده بالخبز لمطعمه وهو يدفع لذلك مبلغا كبيرا بالنسبة اليه . فان هو اصبح صاحب الفرن فلن يدفع هذا المبلغ بل انه قد يشتري دكان ابي علي كذلك بعد تجمع المال لديه ولن يحتاج اذاك الى شراء الطحين من ابي علي كما يفعل الحاج رمضان الان .

كان العم صالح طموحا جدا وكان يرى نفسه صاحب كل الدكاكين المهمة في زقاق البطمة فيبتسم لنفسه ويهنىء نفسه على هذه المكانة المرموقة التي سيحرزها في المستقبل ثم يفيق من احلامه فجأة اذ يدهمه بعض الشك « ماذا يحدث لو توفيت ابنة الحاج رمضان قبل وفاة ابيها » انه لن يرث شيئا . بل ماذا يحدث لو باع الحاج رمضان الفرن لابي علي مثلا ؟ فقد كان الحاج رمضان متقدما في السن وقد يلتمس الراحة من عناء العمل وهو لا ابن له يدير عمله ؟ اذاك سيفقد العم صالح الفرن والمال ولا يتبقى له الا ابنة الحاج رمضان زوجا له وهي ليست على كثير من الجمال كما قيل له . انه الطمع في المال والطموح الى منصب المختار يقلق مضجعه ويؤلمه حينا ويبسم له ويثير فيه الشكوك حينا ويعبس له فيجعله يتمنى وفاة منافسيه ويتركه في حيرة فلا يدري ايخطب ابنة الحاج رمضان من ابيها ام لا . ان هذا من عمل الشيطان ويجد العم صالح نفسه يقول بصوت مسموع « استغفر الله العظيم استغفر الله العظيم » فان قال ذلك في محضر غيره من الناس وسألوه ما بك يسرع الى القول « المرؤ دوما في حاجة الى مغفرة الله الغفور الرحيم » فيشاركه جلساؤه قائلين « استغفر الله العظيم . استغفر الله العظيم » .

كان سكان الحي قوما ورعين متدينين يؤدون الصلاة في اوقاتها ويذكرون ربهم بكرة وعشيا ويقتبسون الآيات القرآنية الكريمة والحكم الدينية يعلقونها في دكاكينهم .

فابو علي مثلا كتب بخط يده الآية الكريمة « يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » والحاج رمضان زيَّن فرنه بيافطة كتب عليها « رأس الحكمة مخافة الله » والعم صالح جمع بين الدين والدنيا فاختار آية كريمة تحث الناس على ترويج صناعته فزين مطعمه بيافطة كبيرة كتبت عليها الآية « وكلوا من طيبات ما رزقناكم » ولكنهم

على ورعهم كان يساورهم بعض الشك في امانة غيرهم من الناس فلجأوا كلهم الى مبدأ اقتصادي مشهور في الشرق « الدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله » كتبوه حيث يمكن للعين رؤيته تحت الايات القرآنية الكريمة . بدأ بذلك العم صالح وقلده الاخران وهما على يقين من صحة هذا المبدأ ونفعه .

وهكذا كانت الامور تسير في زقاق البطمة على وتيرة واحدة ونظام لا يخضع لتقلبات الزمن او هكذا كان التجار يظنون ـ وكانوا يعيشون في تعاون اقتصادي فرضته عليهم الظروف ـ ابو علي يمد الحاج رمضان بالطحين لفرنه والحاج رمضان يمد العم صالح بالخبز لمطعمه والعم صالح بدوره يمد الاثنين معا بالفول والحمص. وكان نادي القوم عند كامل القهوجي رابع اصحاب المهن ولكنهم لم يكونوا يعيرونه كبير اهتمام ولا يعتبرونه من اصحاب المهن فما هو في نظرهم الا مشرفا على مقهى لا يحتاج في ادارته الى معرفة تجارية . وكان كامل القهوجي راضيا بعمله قانعا بالمرتبة التي وضعه الاخرون فيها فعاش الجميع على وئام ظاهر وود متبادل لا يعكر صفوهم شيء . فقد قسم الله ارزاقهم كل له عمل مكمل لعمل غيره ولكنه منفصل عنه فلا مجال اذن للمنافسة التجارية او الخصام او النزاع . ولا شك ان الحياة ستسير كما سارت عليه على نهج مستقيم ونظام لا يتغير .

ولكنهم لم يحسبوا حساب ما في الغيب . فلما وقع ما لم يكن في الحسبان اصابهم فجأة واخذهم بغتة فغير نظام حياتهم واستقرارهم واقض مضجعهم واوقعهم في حيرة لم يدروا لها مخرجا .

كان في زقاق البطمة بجوار الفرن بناء صغير قديم العهد على شكل حانوت مهجور لم يكن اهل الحي يعلمون من يملكه فقد كان مقفلا منذ مدة طويلة حتى ان القوم غفلوا عن وجود البناء في زقاقهم الى ان كان صباح ذات يوم واذا بشاب غريب عن الحي يظهر في زقاق البطمة فجأة ويذهب الى ذلك البناء ويفتح بابه ويدخله ثم يمكث فيه مدة ينظر فيه ، ثم يخرج منه فيغلق الباب ويعود ادراجه من حيث اتى دون ان يكلم احدا . من اين اتى ؟ لا احد يدري . وكان هذا وحده كافيا لاثارة اهتمام سكان الزقاق وتجاره ككل شيء يجد في حي لا تغير فيه ولا تنوع . ولكنهم لما لم يستطيعوا أن يرووا ظمأ استطلاعهم ولم يجدوا لاسئلتهم جوابا تجاهلوا هذه الحادثة واهملوا ذكر الشاب وعادوا الى عملهم او سباتهم السابق . ولكن لم يمض على هذه الزيارة الطارئة الغامضة اكثر من اسبوع حتى عاد ذلك الشاب مرة ثانية . ولكنه جاء هذه المرة في سيارة نقل حملت بالواح الخشب وبعض الصناديق وادوات الدهان وغيره . فنزل منها الشاب واخذ هذا الحمل الى داخل الدكان ثم دخلها هو واغلق الباب من ورائه وذهبت السيارة من حيث اتت قبل ان يتاح للقوم التجمع حولها والاستفهام من سائقها عن مهمته . ما الداعي لهذا التستر وهذا الغموض ؟ هذا شيء غريب ضايق القوم واغضبهم فقد كثر عليهم ان يجري في زقاقهم شيء لا يعرفون حقيقته فاخذوا يتساءلون ويتقولون ويتخيلون ويتوهمون . قال بعضهم هذا نجار يريد ان يفتح دكانا للنجارة في زقاقنا . فرحب البعض بذلك لانه لا نجار في زقاق البطمة وسيغنيهم ذلك عن الذهاب الى المدينة . وقال بعضهم قد يكون الشاب لحاما يعد دكانه قبل وصول اللحم وبدء البيع . فقال اخرون ولكن اللحام لا يحتاج الى هذا الخشب الكثير والصناديق العديدة . واقترح غيرهم ما راق لهم من آراء . ثم قر قرارهم على الذهاب الى الدكان والانصات الى ما يجري فيه .

فسمعوا صوت المطرقة تدق المسامير والمنشار ينشر الخشب فلم يفيدوا من ذلك شيئا فذهبوا الى ابي علي وسألوه عن رأيه . فقال ابو علي « ان وجود الخشب الكثير قد يعني ان هذا الشاب نجار يريد ان يفتح لنفسه دكانا هنا . ولكن لم يقفل الباب وراءه ويخفي أمره ؟ هذا يعني انه يريد ان يبقى امره سرا الى ان يكون محله جاهزا . ولم يريد ان يبقى امره سرا ؟ هذا يعني ان تجارته ستكون من نوع له مثيل في هذا الزقاق . ثم قال بعد تمعن وروية « نعم لا شك في هذا » فعلت وجوه الحاضرين علامات الريب والخوف وخاصة العم صالح الذي قال : « هذا يعني منافسة لاحدنا فمن هو يا ترى ؟ » وخيم على الحاضرين صمت رهيب اذ لم يجرؤ أي منهم على التخمين خوفا من وقوع ما يخشى . ولكن ابا علي قطع هذا الصمت اذ التفت الى الحاج رمضان وقال « لا خوف عليك يا حاج . فهذا الدكان لا يصلح لان يكون فرنا » ثم ابتسم وتطلع الى العم صالح وقال بهدوء « قد يكون هذا الشاب منافسا لي ـ او لك يا عم صالح . لا ثالث لنا » . ولم يتمالك العم صالح نفسه وقال بشدة « في هذه الحالة سنحاربه ونخرجه من زقاقنا . سنضطره الى اقفال دكانه وترك هذا الحي بكامله فهو زقاقنا نحن ولا حق لاحد غيرنا فيه ـ نعم لن نصبر على أي منافس » فابتسم ابو علي وقال « ولكنه قد لا يكون منافسا لك انت . قد يكون منافسا لي وحدي . أستحاربه اذاك ايضا ؟ » وأوقع في يد العم صالح واضطر الى القول « بطبيعة الحال سنحاربه معا » وهكذا انفض الاجتماع والقلق يعتمل في بعض النفوس .

وبعد بضعة ايام فتح الشاب دكانه واذا به دكان بقال . لقد وقع ما كان ابو علي يخشاه . اجل كان دكان هذا الشاب صغيرا ـ اصغر من دكان ابو علي ـ ولكنه كان دكان بقال وفي هذا الكفاية لاثارة المخاوف وروح المنافسة والكراهية . ان كان هناك من خطر فالخطر على ابي علي وحده . اما العم صالح فتنفس الصعداء وزال قلقه وقرر ترك ابي علي وحاله . نعم انه وعده بالوقوف في جانبه ولكن الم يستدرجه ابو علي الى ذلك الوعد استدراجا .

ولم يكن ابو علي نفسه متخوفا من منافسه الجديد . فهو اولا جديد في الحي غريب عنه وسكان الحي سيواصلون شراء حاجياتهم من دكان ابي علي كما كانوا يفعلون سابقا ، ما في ذلك شك . ثم ان هذا الشاب يبدو هزيلا ـ ولعله يعاني من مرض يمنعه من فتح دكانه مدة طويلة كما يفعل هو ، انه لن يطيق العمل التجاري المتواصل ولن تحتمله صحته ثم يظهر ان هذا الشاب لا يعرف المبادىء الاولى للتجارة فهو لم يعلق على دكانه يافطة يعلن فيها اسمه وتجارته وهذا اكبر دليل على ان الشاب جاهل بامور التجارة يظن انها لعب اطفال ! هذا فضلا عن المكانة الرسمية التي يحتلها ابو علي في الحي والتي توجب الناس على ان يسترضوه .

دارت هذه الافكار في مخيلة ابي علي فقرر ان لا خطر

من الشاب الحدث فاستراح باله واهمل منافسه وقرر انه لا يستحق منه الاهتمام . ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن . اذ لم يلبث ابو علي على ان راى تجارته تقل وتجارة منافسه تزداد يوما بعد يوم ولم يدر كيف تم ذلك لمنافسه واخذ يلوم نفسه على انه السبب في ذلك فانه لم يتخذ الحيطة من بادىء الامر بل استصغر شأن هذا الشاب . فهرع الى العم صالح يذكره بوعده ويطلب منه العون على محاربة خصمه . فلم يكن من العم صالح الا ان القى اللوم على ابي علي لانه لم يفطن الى مهارة الشاب . ثم قال « كان عليك ان تتدبر ان دكان منافسك بالقرب من الفرن الذي يذهب اليه الناس بالضرورة ولقربه يشتري الناس منه بينما يشتري الاطفال الحلوى منه والشراب البارد وهم في انتظار خبز الخبز في الفرن . ثم انه يرشو الاولاد بقطعة شكولاته او ملبس اذا اشتروا منه شيئا لا يوجد عندك ، فان ارسلتهم امهاتهم لشراء شيء ما حتى ولو وجد عندك يذهبون اليه ليحظوا بالحلوى مجانا . ثم اني سمعت من بعض الرجال ان زوجاتهم يفضلن شراء حاجياتهن من عنده عطفا عليه على حد قولهن فهو ما زال شابا تجدر مساعدته وتشجيعه ثم ان هزاله يدر عليه عطفهن وحنان الامومة فيهن . وهو لا يسمح لصحته التدخل في عمله فهو يفتح باكرا ويغلق متأخرا ــ بل انه يؤدي فرائض الصلاة في الدكان بدلا من الذهاب الى الجامع كما تفعل انت . بل ادهى من هذا واشد انه يبيع الناس بالدين اتعجب بعد ذلك ان تنجح تجارته وتكسد تجارتك والنقود غير متيسرة ؟ بل لقد اصبح الناس يلقبونه بابي حاتم لانهم يظنون ان عمله هذا كرم يفوق كرم حاتم الطائي الذي سمعوا به سمعا ولم ينتفعوا منه . »

قال ابو علي « وما العمل يا عم صالح ؟ » قال العم صالح « ما عليك الا ان تبيع الناس بالدين » فصاح ابو علي « ولكن هذا جنون . هذا تبذير . هذا اسراف كأني اوزع بضائعي على الناس صدقة مجانا ــ من يضمن لي انهم سيدفعون لي دينهم؟ » قال العم صالح « لا ارى حلا غير هذا فلا يمكنني مساعدتك » .

فقال ابو علي « لكنك وعدتني بمحاربته وطرده من الحي ــ انا اريد مساعدتك الان » فلم يتمالك العم صالح اظهار ضجره وقال « لا يمكنني عمل شيء لك . اصبح الناس يحبون ابا حاتم كما يسمونه ــ وما لك الا البيع بالدين . »

وعرف ابو علي ان العم صالح لا ينوي مساعدته وانه لم يعده بذلك الا مجاملة ولم ينو تنفيذ وعده ابدا فلا يرجى منه شيء . وكان على وشك الذهاب حينما خطرت بباله فكرة فالتفت الى العم صالح وقال ببطء وهدوء الحق معك . يظهر ان ابا حاتم اصبح محبوبا جدا حتى ان الحاج رمضان .. ولم يمهله العم صالح حتى يكمل جملته فما ان طرق سمعه اسم الحاج رمضان في هذا الموضوع حتى شعر بخوف ملأ قلبه فجأة وشعر ان احلامه وآماله في خطر وان مستقبله الذي حلم به على وشك الانهيار ولذلك قطع على ابي علي كلامه وسأل بحدة « الحاج رمضان ؟ ما دخله في هذا الموضوع ؟ » فقال ابو علي بنفس البطء والهدوء اللبق « كنت اقول ان الحاج رمضان كذلك يعجب بابي حاتم هذا الى حد كبير حتى انني سمعت انه يأمل في ان يزوجه ابنته » فثارت ثائرة العم صالح . اذن ابو حاتم منافس له هو كذلك ــ ليحاربنه بكل قوته وليطردنه من الحي بكامله ــ سيحاربه هو وابو علي معا او هو وحده ان اقتضى الامر ذلك . ثم قال « انا لا زلت على الوعد . سنحاربه معا . » ولم يقل ابو علي شيئا بل ابتسم في سره وذهب من حيث اتى . لقد اصاب في ظنه فنجحت حيلته .

منذ ذلك الوقت اعلنت الحرب بين الطرفين وكانت حربا مريرة لا رأفة فيها ولا ادب . حاول العم صالح ان يطعن في خلق ابي حاتم ثم في اسرته وحاول ان يضطهده بالسباب والشتائم فلم ينجح . وقرر الا يبيعه الفول لغدائه . ولكن ابا حاتم صار يحضر غداءه معه . فذهب الى كامل القهوجي وطلب منه الا يبيعه القهوة او الشاي او يمده بالماء . ولكن كامل قال انه مسالم ــ الكل زبائنه والكل اصحابه وعمد ابو علي الى المكر والحيل . فكان يرسل اصغر ابنائه ليشتري بعض الاغراض من دكان ابي حاتم ليعلم ثمنها فيبيعها هو بسعر ارخص ليضارب على منافسه ولكنه لم ينجح . ذلك انه رفض ان يبيع بالدين وكان يظن ان هذا حرق للنقود وانه سيؤدي بأبي حاتم الى التهلكة ولذلك عزم على الانتظار فنهاية خصمه اتية لا محالة بينما كان العم صالح يواصل حملة القذف والطعن ويوسوس في اذن الحاج رمضان ليثير فيه الشكوك ــ ولكن الحاج رمضان رفض ان يقتنع .

واستمرت الحرب واشتدت الخصومات وانقسم القوم الى حزبين ــ حزب يؤيد ابا حاتم وحزب يؤيد ابا علي وزمرته وتباغض الناس وتناكروا بعد ان كانوا معارفا واحبابا . لم يعد زقاق البطمة ذلك الزقاق الهادىء الساكن الذي عهدوه بل اصبح ساحة حرب للعواطف ومسرحا للتناحر واخذ البعض يدعو الله بان يصلح الحال وان ينهي الامر بحسن المآل .

وجاءت النهاية على نحو غير متوقع . جاءت على نحو محزن . لقد صدق ظن ابي علي فقد كان ابو حاتم مريضا. لقد كان ضعيف القلب فكف عن الخفقان وهو ما زال في عنفوان الشباب . وكان موته مأساة ولكن زقاق البطمة كان يعرف ابا حاتم منافسا ساق اليهم اسباب التفرقة والبغضاء فكم كانت دهشتهم عندما افاقوا صباح يوم الجنازة فوجدوا جميع الحوانيت في الزقاق مغلقة ووجدوا على كل منها يافطة سوداء تقول « نقفل حدادا على ابي حاتم رحمه الله » .

ولم يتمالك بعضهم ان يتساءل « اهذا لحزن ام سرور » .

وتوقع القوم ان تعود الامور في زقاق البطمة الى سابق عهدها وان يعود الى الزقاق سكونه وهدوؤه . وظنوا ان حادثة الشاب البقال كانت سحابة صيف عبرت بهم فلما مرت لم تخلف وراءها اثرا ولم تغير طابع الحياة في الزقاق . ولكن هل اصابوا في ظنهم ؟ بالفعل لقد بدا الوضع هكذا في بادىء الامر فقد عاد الى الزقاق سكونه وهدوؤه ولكن الحاج رمضان سمع يوما يقول « هذا هدوء الموت لا هدوء الحياة . »

معاوية الدرهلي
جامعة درهام ــ انجلترا

موقف الشهادة

✳

لابراهيم شكرالله
القاهرة

○

« انا تاسع التاسوع
انا ثالث الثالوث
انا الواحد الاحد الذي لا احد سواه »

فهل شاهدت خطرات خطوها
بين فارعات اللوتس
تبحث عن جسده الذبيح

او شاهدت في الفجر
مسرى الامهات العذارى
ووقوفهن امام القبر الفارغ
يطلبن الحي من بين الاموات

او البتول تندب ريحانة الجنة
وترد الكفن على وجهه الندي بالدم والطيب
وتثوى الاشلاء الدامية من الطعنات والحب
عند بطاح كربلاء

فقد سقط العريس ، هوى سيد الفتيان
تعفر بالتراب الجبين الذهبي الذي لثمه الفم الطاهر

فيا لمصارع العشاق ولثارات الحب

فمتى مطلعك المظفر
في جحافلك الكثيرة وخيلك المجنح
والنصر العظيم

عندما تهبط في هزيم المجد ورعدة الملكوت ، على
القمم وفي الافنية، وتنشر نورك وعدلك وسبحانك،
وتجمع بين المشرق والمغرب ، وترد امس للغد ،
وتصر ريح الفناء ،
وتشق حجاب الهيكل ، وتسل سيفا للنقمة لا يرد
حتى ترف روح الله من جديد على وجه المياه
وتسكن نفس ابليس ، ويصعد « ست » حيث
سكينة الوحدانية واستتار المخلوق بالخالق .
في مصاب الزمن عندما تخفت رقرقة الجدول
وتضيع مياهه في المغائر الهادرة للبحر
عندما تتفرق الافلاك الخرساء
وتنشر شباك العدم

في الومضة التي بين اليقظة والنوم
في الايماءة التي بين الحركة والسكون
في الهزيع الاخضر من الليل الاخير
بين اطواء السحاب وفي مفازات الحلم ومهاوي النوم

اذ اضم بذراعي امي ايزيس
وتجمعني جوانحها ويطويني جسدها الظليل
فاشهد وجه ابي من جديد واسبح
ساكنا على الدرة البيضاء
عند مجمع البحرين

فلما امتدت يداي ترفع الاقنعة السبعة
قناعا بعد قناع
عن وجهها القديم
صرخت من الهول وجفت ذراعاي على منكبي
وتداعت عمد البيت
فاي خوف ذاك الذي شاهدت بين الوجنتين
اي موت رابض بين الجفن والعين

« ما زاغ البصر وما طغى »
قناعك لم يكشفه بعد انسان

صديق

✳

عدمتك لا اسأل ُ وطيفك لي مأمل ُ
سفحت َ الحياة علي وأوجعت ما انهل
وغيرك ، في العمر الا زوال ، وما يهمل ؟

* * *

بعيد ُك ، يهمي ظليلا واقصى الهوى يشمل
وانت َ ، بهمّي عجيب وفوحك لا يحمل
ملكت ابائي وجرحت شكري ولا تمهل
وأعطيت ... اعطيت حبا ... برنحه الاجمل

* * *

ملأت َ ، فضقت ُ هناء ومنيت ُ لو تبخل
وعبئك فيّ شجيّ وفي مطمحي أنبل
صداك هُنا وفتون ٌ ... ورجع ُ الصدى أثمل
عدمتك َ حتى اموت َ ... فجرح ُ المدى أفضل

جورج رجي

اللغة والفكر

بقلم فيليب بلارد

ترجمة سليم عبد الجبار
ليسانسيه في الاداب

اللغة يا سيدي ، هي دماء الروح التي تجري افكارنا فيها وتنمو منهـا [هولز]

O

عندما نفحص العصي والصخور (١) ، نفحص العصي والصخور في حد ذاتها ، وعنايتنا آنذاك ، تنحصر في الاشياء التي يتألف منها العالم المادي ، وهو انما يجري وفق نظام خاص معين ولكن عندما نفحص « الكلمات » سواء اكانت ملفوظة او مسموعة ، فاننا نعير اكبر اهتمام الـى معانيها وهذه تنفلق الى دلالتين واضحتين ، الاولى العقل القاصد والثانية للاشياء المقصودة ، وفي الحقيقة ، فنحـن لا نستطيع التفكير بصفاء فيما يتصل باللغة . ولا نستطيـع مناقشتها بأي درجة من درجات الفائدة ما لم نستحضر في اذهاننا غالبا ما نتعامل به ، لا بمرحلة واحدة : الالفاظ ، ولـكن بثلاث مراحل ، الافكار ، والاشياء ، والكلمات . وبدون أي واحدة من هـذه الثلاث ، تنسـاى اللغة في حساسيتها الدقيقة ، ولن يبقى في أيدينا شيء منها .

ولربما تظهر هذه الحقيقة الاساسية بجلاء تام فيما لو توضحت بمثال محدود دعنا نفترض بأني اصف لصديـق ما زيارة لعائلة يعرفها صديقي فأقول له : لقد « قرات ايزابيل ، كتابا » ولا بد انه يفهم مضمون ما اعنيه في الحال ، فهذا الخبر البسيط انما ينطوي على نظم ثلاثة من انظمـة الوجود : فالاول : يتضمن فكرة (عقل) المتكلم . وفكـرة (عقل) السامع والفكرة المنتقلة من المتكلم الى السامع وهذه هي المرحلة العقلية او الفكرية . والثاني يتألف من كلمـات لفظت بواسطة القائل وسمعها السامع « قرات ايزابيـل كتابا » وهذه هي المرحلة اللفظية ، والامر الثالث والاخير ، يتألف من الاشياء المقصودة او المشار اليها بواسطة القائـل ايزابيل الحقيقية ، والكتاب الحقيقي ، وفعل القراءة كما هو في الحقيقة ، فاذا ما دعوتها « بمرحلة الاشياء » قيدت استعمال كلمة اشياء ، بالاشياء التي افكر فيها او اتكـلم عنها ، او اشير اليها وباختصار اشياء صنعت لترمز الـى اشياء مقصودة ، ومع هذا الاحتياط يلزمنا تاكيد موقت ذلك ان كل نوع من الكلام ــ سواء اكان ملفوظا او مكتوبا ــ يشمل انواع الوجود الثلاثة الواضحة : الافكار ، والكلمات ، والاشياء . اقول « موقت » لاننا سنلاحظ اخيرا عما اذا كانت الكلمات ضرورية ام كان بالامكان ان تحل محلها اشارات او رموز اخرى(٢) .

ولقد أكد « صموئيل تبلر » الحاجة الماسة الى عقلين في حالة التفكير في مقالته عن « التفكير واللغة » حينما قال « لا بد من وجود شخصين لقول شيء : لاصدار حكم مـن الاحكام او التعبير عن راي من الاراء : هما المستمع والقائل والاول (المستمع) فالثاني (القائل) جوهري بالنسبة لاي كلام صادق » .

فالشخص الذي يهمس بالكلام دون ان يكون هنـاك من يستمع اليه ، لا يراه « بتلر » الا على شيء من الشذوذ ، وكلامه عندئذ لا يجري وفق الشروط المقبولة للتعبير ، ولربما ادى الى شيء من الضرر لمن يعتاده !

وفي الحقيقة ان النوع الوحيد للتكلم مع النفس هو ذلك النوع الذي اورده « صموئيل بتلر » في مقالته المشار اليها ، وهو التكلم مع النفس بصورة جهيرة ، أما النـوع الثاني فهو الكلام الصامت الداخلي الذي يتغلغل في اذهاننا خلال أغلب لحظات يقظتنا ، ذلك النوع الذي ينكره بتـلر تمام الانكار ، ولكن مؤلف الروايات التمثيلية لا ينكره حيث يعطيه نطقا مسموعا ويدعوه بمناجاة النفس Soliloquy ومثل هذه المناجاة ليست امرا طبيعيا ، وينذر ان يلجـأ اليه احد المدمنون وبقله . اما في المسرحيات الحديثـة فقد نبذت هذه الطريقة كليا ، فهي من العبث العلني لشخص ان يقف على المسرح ليتكلم بصوت عال فيسمعه جميـع اعضاء « الجمهور » ثم يفترض ان لا يسمعه القريبون منه من الممثلين ، بل ان الجمهور انفسهم ليس مفروضا بهم ان يسمعوا كلامه ، فالجمهور الحقيقي هو المتكلم نفسه ، لذا فترك هذا الاتجاه لا يحتاج الى نزاع ، ولكن ليست المناجاة محالة ، انها النطق المسموع فالمناجاة نفسهـا ــ المنـلوج الصامت يجري دائما ودائما من الصباح الى المساء وحتى يغير على أحلام البعض ، فهذه المناجاة ليست سخفا بـل انها للشخص العاقل امر طبيعي جدا .

وبعد هذا ، كيف ندخل المناجاة في دراستنا بينمـا العبارة تحصر الطريقة بشخص واحد ؟ ففي المناجاة لا يجد القائل مستمعا يصغي اليه ، ومع ذلك فانا اعتقد بان المجادلة مقبولة على ان المستمع ليس غائبا حقيقة ، فهو حاضر في هيئة اصغاء خيالي ولعدد كبير من تخيلاتنا عندما نفحصها بانتباه نراها مؤلفة في الغالب من محادثات خيالية .

واجداها علينا انما ذلك النوع من المحادثة الذي يتجه الى تحقيق شيء في المستقبل ويشير اليه ، ونحن نعتقـد بالذي سنقوله ، لهذا او ذاك لنقنعه بتقبل رغباتنا او نقنعه بالعدول عن معارضتنا ، فالخطيب مثلا في أعماق عقله ، يتروى بخطبته ، والواعظ يعد موعظته قبل وضع الحبر

(١) راجع الترجمة ، الدكتور عبد العزيز البسام معاون مدير المعارف العام في العراق .

(٢) راجع الاديب نوفمبر ١٩٥٥ ، مقال « معنى المعنى في الشعر الحديث » للاستاذ منح خوري ، ففيه عرض لهذه الفقرة .

على الورق ، وغالبا في غياب الحبر والورق ، وكذلك ينشأ الكاتب مقالته والروائي ينسج هيكل روايته ، وهذه الاعمال جميعها بمثابة التمارين اما الانجاز الحقيقي فلا يأتي الا متأخرا .

ومع ذلك فالتمرين عنصر اساسي في الكلام الصادق يشرح افكاره لمنفعه حتى اذا كان لا وجود له الا باعتباره صورة منعكسة عن ذهن

وعلى كل حال فالتسليم بان جميع تخيلاتنا ليست تمارين على الالقاء أمر ممكن ، فبعضها محاولات عرضية او فعلية ، متقلبة ، او مستمرة ، لاستعراض حادث ما او لانشاء مقالة ، او موضحة لبعض انواع المسائل ، واخريات هي مجرد احلام يقظة يلهو بها الحالم كما يلهو الممثل بدور البطولة في عالم لا يبالي به يبدو قبل رؤياه مكشوفا لتطبيقه .

ومع ان لا واحدة من هذه الشوارد الفكرية تكون محادثة واضحة ، فالمناجاة تكون قائمة ، كافية .

ان تيار التفكير ربما يصاحب ـ او لا يصاحب ـ بتيار الصور العقلية ، ولكنه يصاحب غالبا بتيار الكلمات .

وكما هو معروف ، ما دام الانسان على قيد الحياة ، وفي حالة يقظته ـ وفي حالة نومه احيانا ـ تستمر في أعماق عقله بصمت ، وتكتم . تأويلات في كلمات ، كلمات. على الحالات التي تحدث في عالم الحقيقة الخارجية ، وعالمه الخيالي. انه يظل الى الابد متكلمامع نفسه بعض الاحيان بصورة حسنة ، وبعضها الاخر بصورة رديئة ، ولكنه يظل الى الابد متكلما ، وحتى اذا لم يكن هناك ثمة مستمع اخر ، حقيقي او خيالي ، فهو يقوم بالدور كاملا ، اي ان يكون هو المستمع بنفسه .

وللدفاع عن هذه النظرة الى المناجاة ، او الكلام الباطني يمكن تشبيهها بانها ضرب من اللغة كضروبها الاخرى ، بل هي في الحقيقة لغة باعتبارها في طريقها الى الصياغة ، وان غياب المستمع في المناجاة لا يبطل التمييز بين القائل والمستمع ، وانا في دفاعي عن هذا لا اعبر عن رأي تافه بل أضع امام الاعين رأيا له اهميته الحيوية من الناحيتين النظرية ، والعلمية التربوية فلملكات الفكر والكلام الباطني على مثل هذه الصلة الوثيقة حتى ليأتي نموهما وانحلالهما معا، فلا نستطيع ان نتعهد تنشئة احدهما مستقلا عن الاخر ، والتدريب على لغة الام ـ اللغة التي يفكر ويحلم بها الطفل ـ انما هو تدريب على الاصول الاساسية في الدراسة ، وهي الاداة المرهفة في تلقي المعارف الانسانية .

ومنذ ان تعامل السامع مع القائل ، بنطاق واسع لتعديل وسبك افكاره ، وكلماته معا ، وفي الحقيقة منذ ان اصبح لسان الام ليس كحركة فقط ، ولكن كضرب من التعامل صار يتطلب شخصين ، فاذا كان احدالشخصين ـ الذي ادعوه السامع ـ غائبا فالسياق يفشل حتما ، كعامل غرضه .

وذاك الذي هو غائب يكون بين الوضوح لاي شخص ياخذ على عاتقه تمحيص تمارين الانشاء المألوفة في مدارسنا ، وكلياتنا ، فالتلميذ في هذه الحالة يعطى قطعة انشائية في موضوع معين ولكنه لم يخبر ابدا عن اولئك الذين يستفيدون منه ، يكون غالبا مستعدا للكتابة ، ولكن كتابته لم (تعنون) لشخص معين ، انها نطق وجه سدى ، فمثلما يستلزم المتكلم السامع، كذلك يستلزم الكاتب القارىء، فلا يستطاع اغفال القارىء او ابعاده .

ولهذا يجمع الكاتب كثرة من المنبهات وكمية كبيرة من التوجيهات ، فعندما يكتب شخص يكتب ـ غالبا ـ لشخص ما وهو يعرف جيدا ماهية ذاك الشخص ، وعندما يكتب يوميات خصوصية يعرف ان هذه اليوميات موجهة اليه بالذات ، واذا امكنني استعمال كلمة « الجمهور » لكي تشمل اولئك الذين يقرأون مثلما تشمل اولئك الذين يسمعون ، فلربما اشتملت على شخص واحد او عشرات .

وعندما يكتب الكاتب رسالة خصوصية ، فان (جمهوره) يشتمل على شخص واحد . وعندما يكتب كتابا فان جمهوره يشتمل على مجموعة من الاشخاص ـ وهي في العادة المجموعة المعينة الصافية ـ فالكتاب يصبح بعد الطبع ، حقيقة تقدم الى العالم اجمع بمقياس واسع ولكن المؤلف اثناء كتابته للكتاب تمثل في ذهنه فئة خاصة من القراء يوجه خطابه اليهم ، وهم الذين يؤلف من اجلهم كتابه ، فالجمهور الذي كان في عقل « برادلي » عندما كتب كتابه (المظهر والحقيقة) مغايرا للجمهور الذي كان في عقل ادجار والاس عندما كتب (قارع الجرس) .

وانما بدت اهمية هذه الحقيقة على وضوحها حينما نشر السر فيليب هارتوج كتابه المسمى (فن الكتابة في الانكليزية) عام ١٩٠٧ اذ اظهر هناك الحاجة لتعيين (الجمهور) ووضع اهمية (قصوى) على التمييز الذي دعاه في الطبعات الاخيرة ـ للكتاب ـ [التمييز بين الخطاب Message وبين السجل Record] فالسجل يكتب الى الشخص نفسه في حين ان الخطاب يكتب الى شخص آخر، وقد أظهر بوضوح كيف ان تخصيص السامع يزيد في وضوح وتحديد اغراض القائل (التلميذ) في الكتابة .

وفي الحقيقة لم تقدم المدرسة مجالات او تغييرات مهمة يستفيد منها الجمهور لانه مهما افترضنا طبيعة السامع، فالتلميذ يعرف جيدا بان جمهوره الحقيقي هو معلمه(فقط) فاذا ما كتب ـ كتمرين مدرسي ـ رسالة الى جدته مثلا . فهو يعلم من اول كتابته الى آخرها ، بالحقيقة ، ذلك ان جدته لا تقرأ رسالته ، ولكن معلمه هو الذي يقرأها كاقرب ناقد متسامح ، فالاستاذ يكون حينئذ بمثابة الجمهور الجامد ، الجمهور التمثالي ، الجمهور الاصطناعي، انه المحفل (الجمهور) الذي لا يتوقع التلميذ الهاءه ، ولا يرغب باخباره وبعد فهل هناك من تعجب اذا لم يجد الطالب مصدرا للايحاء في كتابته ، وهل هناك من تعجب اذا لم يعتبر التلميذ واجبه كخطاب ولا يعتبره كسجل ، انه ببساطة يعتبره كاجراء لا بد منه للحصول على المدح ، او للحصول على عدد معين من الدرجات او ربما يعتبره في صورة اخرى ، اعني ان يلقيه في سلة المهملات وهي صورة ـ ولا ريب ـ لا تسر التلميذ .

وفي جو المدرسة الاصطناعي ، لا يستطاع معالجة هذه (الالتفاتات) كليا ، ولكن من الممكن معالجتها جزئيا ، فمن الممكن تخصيص الجمهور ، ففي بعض الاحيان يمكن الحصول على جمهور حقيقي غير المعلم ، فموضوع التلميذ يمكن قراءته على الصف ، أو طبعه في صحيفة المدرسة ، وحتى عندما ياخذ المعلم نفسه موقف الجمهور بالنسبة الى التلميذ ، كما يحدث عندما يصلح تمارين الانشاء ، فعليه ان يتخذ دور الاخ الاصغر ، أو ابن العم القروي أو الصديق في ارض اجنبية ، وباعتبار ـ انه سيقرأ تلك القطعة

الانشائية ، عليه أن يكون وكيلا صادقا على الاقل ، عليه ان يمثل دوره بثقة تامة ، وان يرتب تفسيراته طبقا لسجية القائل (التلميذ) الافتراضية ، وفي كلمات اخرى ينبغي ان يتناول ما يكتبه التلميذ بمحض العطف والبشاشة .

ذلك ان كتابة اللغة بصورة جيدة أمر يحتاج الى تنشئة ورعاية ولا يأتي نحو المقدرة في هذا المجال الا بطيئا، حتى ان واجب المعلم الاول ينبغي ان ينصرف الى ضمان بدء سير النمو اطلاقا ، وليس عليه ان يتعجل هذا النمو ويحثه حثا وانما يتم هذا النمو بالثناء العاطر ، لا بالاهمال او بالانتقاد المر .

وهذا يكفي لمناقشة الناحية الاولى ، ناحية الافكار ، نصل الان الى ناحية الالفاظ ، نصل الى لب محاورتنا . وحولنا اسئلة صعبة ، تنبعث افواجا ، كيف بدأت اللغة ؟ وهل بدأت صدفة أم بدأت عن قصد وتصميم ؟ وهل للحيوانات لغة ؟ وهل التفكير ممكن بدون لغة ؟ وهل اللغة ممكنة بدون كلمات ؟ وما العلاقة بين اللفظة ومعناها ؟ وما معنى المعنى ؟ وما الشيء الذي يجعل لغة ما ادق او خيرا من لغة أخرى ؟ وهل اللغات التركيبية القديمة قد تطورت الى اللغات التحليلية الحديثة ؟ أم انها تضاءلت وانحلت ؟ وهل أن اللغة العالمية ممكنة ؟ واذا كانت ممكنة فهل هي مرغوب فيها ؟ وليست هناك نهاية لهذه الاسئلة ولا جواب لبعضها ومع ذلك فدعنا نمسك بواحد او اثنين من هذه الاسئلة .

ان مسالة اصل اللغة وسنلمسها بخفة ، مسالة قديمة ابلتها المجادلات التي لا تحصى الشبيهة بالركض حول محيط الدائرة ، وانها من الغرابة بحيث لا يعنى بها الا المطبوعون على البدوات الغريبة ولذلك فان جمعية فقه اللغة (المجمع اللغوي) اتخذت مرة قرارا يقضي بانها لن تقبل بحثا او تعقد مناقشة تدور حول أصل اللغة ، ولهذا فانا ازعم بأن القارىء على علم سابق بالنظريات التي دعاها ماكس مولر بنظرية Pooh-Pooh ونظرية Bow-wow ونظرية Ding-Dong على أن هناك ازاء هذه النظريات صعوبات جمة ، فكل واحدة منها تفسر جزءا يسيرا من الحقائق المتعلقة باللغات ، وتتناول جانبا ضيقا من الالفاظ تسعى الى تفسير اصله ، وتدع الجانب الاعظم من الالفاظ في كل لغة من اللغات غير مفسر ولا مشروح .

وحتى اذا اخذت هذه النظريات الثلاث مجتمعة فان ذلك لا يزيدنا علما كثيرا انها ثلاث شمعات تجرب اضاءة كنيسة كبيرة ...

وقد اضاف ريجارد بيجت الى هذه النظريات الثلاث حديثا نظرية رابعة ولكنها اشعة هزلية شأنها كشأن الاخريات ، وظلمة الكنيسة الكبيرة لا تزال كما كانت - دامسة (٣) .

وبعد فان كثيرا من الباحثين النظريين انما يسعون لان يكتشفوا نوعا من الصلة الطبيعية او العقلية بين اللفظة ومعناها ويراد بالمعنى (وهذه لفظة على جانب كبير من الغموض) هنا الشيء المعني بصورة بسيطة ، ذلك ان الكلمة

(٣) راجع - التربية ، حقائقها واصولها الاولى تأليف السير برسي نن تعريب الدكتور عبد العزيز البسام - الفصل الخامس عشر - تطور الفكر .

(٤) بموجب النظرية الاولى Bow-wow ، ابتدات اللغة بتقليد الاصوات المتميزة للحيوانات .

رمز ، والرمز غالبا له شريك ، وشريك الرمز هو الشيء الذي يرمز له ، وشريك الكلمة هو الشيء المقصود ، فكيف حصل الاقتران بين هذين ؟ فانا - الان - اكتب بالحبر على الورق ، فكيف جعلت الجملة تأتي لتقصد ما نقصده نحن الان ؟ كيف ان كلمة ورق paper تأتي لتدل على المادة التي نعرفها بهذا الاسم فليس في هذا الشيء المعين صوت يمكن تقليده بكلمة ورق ، كما تستلزم نظرية — Bow-wow وليست الكلمة هتافا طبيعيا يستدعيه منظر الشيء كما تجزم به نظرية Pooh-Pooh (٥) وليست هناك ملائمة دقيقة بين الكلمة ومعناها حتى ولو عز تفسيرها كما تقول نظرية Ding-Dong (٦) . فالرجل الذي يسمع كلمة ورق Paper لاول مرة لا يملك اية اشارة - مهما كانت - عن معناها ، ولن يقدر بذكائه البشري ان يستنتج المسمى من الاسم ولا الاسم من المسمى ، فالعلاقة بينهما لا تجري وفق المنطق ، فهي غير محسوسة وهذه العلاقة قائمة منذ اول ما عرفت الكلمة ، وفي الحقيقة نستطيع الرجوع بتحقيقاتنا الى الفرنسية واللاتينية ، ومنها الى الاغريقية Papuros التي تعني قصبا او بردي (حلفاء) الذي صنع منه المصريون مادة كتابتهم ، ولكن هذا التحقيق لا يساعدنا اية مساعدة وللان لا زلنا بحاجة الى شرح الصلة بين البردي او القصب وبين كلمة Papuros والكلمات قلم pen ويكتب write والآن now تروغ منا اذا اتبعنا الطريق السابق وعندما نأتي لنعتبر مثل هذه الكلمات either و but و else تبعد حيرتنا عمقا ، لاننا نفشل بادراك كيف جاءت هذه الكلمات مزدوجة بعلاقاتها الفنية المضبوطة التي تشير اليها وعلى احسن الوجوه نقبل الكلمات التي نستعملها لا كاشارات طبيعية ولكن كاشارات «اصطلاحية» وكاشارات اصطلاحية ، تخدم اغراضنا كما لو كانت اشارات طبيعية .

ومع هذا يظهر معقولا للاعتقاد ، بان الرمز في بداية نطق الانسان ، كان يحمل للشيء المرموز (الشيء الذي يرمز له) صورة من صور العلاقة .

ونحن نعزز الايمان القائل بان الازدواج بين الكلمة والشيء لم يكن بمحض الصدفة ، ولكن بواسطة بعض انواع القياس او المشابهة ، او بضرب من ضروب التوافق ونقنع تماما بان ابكر لغات السلالات البشرية كانت لغة اشارات طبيعية ، منذ ان اصبح من السهولة لدينا ان نجد علاقة طبيعية بين الاشارة والمعنى ، اكبر مما بين الصوت والمعنى .

والنظرية التي تقبض الان على زمام المعركة ، تلك التي تنص على ان لغة النوع البشري كانت لغة اشارات طبيعية ، فنحن نرى في بعض لغات الاقوام البدائية المعينة اليوم شاهدا على الطغيان التدريجي للغة الملفوظة على لغة الاشارات ، وفي لغة اعظم الاقوام مدنية لا تزال بقايا من اشارات قليلة باقية ، متمهلة .

وحتى هنا - للان - نجد الرباط الطبيعي بين الاشارة والمعنى يبدو غير واضح بواسطة حوادث الصدفة والتغير ، وللرباط سره المفقود الى الابد، وبالرغم من ان اكثر اشاراتنا

(٥) وبموجب النظرية الثانية ، ابتدات اللغة بالاستغاثات (او التعجب) او النطق الغريزي الذي يستدعيه الالم او الاحساسات الحادة او التأثرات .

(٦) وبموجب النظرية الثالثة ابتدات اللغة بالاصوات الطبيعية المرافقة للحوادث المشاعة بين الجميع .

«والانسكلوبيديا» البريطانية تسمي هذه النظرية -الثالثة- yo-he-ho

التي لا تزال باقية في اللغة تظهر سهلة للتعليل ، فان اخر كثيرات تستصعب على التعليل .

فمن السهولة ــ مثلا ــ ان نرى لماذا اعوجاج او غير اعوجاج السبابة يعني تعال هنا ولماذا ضرب الجبهة بلطف يعني « اين ... اين وضعت هذا الشيء (٧) » ولكن ليس من السهولة ان نرى لماذا تعني هزة الرأس الافقية « لا » بينما تعني هزة الرأس العمودية «نعم» وهي اقل سهولة تماما ان نرى لماذا أطباق الجفن ذو دلالة نعجز عن وصفها بالكلمات .

ولكي آخذ هذه النظرية اقول ان الغامز بغمزتـه يقول ــ على الاقل ــ مثل هذا القول لمن يغمز اليه « انا وانت نفهم بعضنا البعض احسن الفهم حول هذه النقطة ، ونحن معا نفهم وجها من المسالة التـي اختفت عن البله الواقفين حولنا » فالغمزة ضرب من الاشارة لموقف تهكمي ، ولكن المرء يحتاج الى حذق كبير ليفسر كيف ان معنى السخرية في الغمزة موجود .

وقد اعتمد السر ريجارد بيجت على فرضية انبعاث اللغة من الاشارات ، واضاف هذه الفرضية الى نظريته التي اشرت اليها والتي يمكن ان تعد كفرع من نظريـة ... Ding-Dong (٨) ونظرية بيجت باختصار تعني ما يأتي :

رجل يتكلم لاول مرة بواسطة التمثيل بالاشارات مستعملا يديه في أقصى استعمال للاشارة ، ولكن عندما تمتلأ يداه أو تكون مشغولة بعمل يدوي ، يكون غير قادر على توصيل افكاره ، وعليه ان يجد طريقة اخرى ، ولحسن الحظ صار يستحضر تلك الطريقة كلما احتاجها ، فحركات يده كانت مصحوبة ــ بشيء من الصلة الخفية ــ بحركات تقليدية يقوم بها لسانه وشفتاه ، وفكاه كما يفعل الصبي وهو يتعلم الكتابة لاول مرة ، اذ يعض لسانه ويحركه تبعا لحركات اصابعه ، وكما يفعل الرجـل وهو يصر باسنانه عندما يحتسي عصير الليمون الحامض ، فالفم يقلد اليد في حركتها .

وبعدئذ ، حدث حادث عظيم الاهمية ، ذلك ان الانسان البدائي اكتشف بان الحركات الشفهية ترتبط مع بعضها بواسطة صوت البلعوم ، فتمثيل الفم للاشارات يتميـز بالاذن ، ولاول مرة اصبحت الحواس البشرية ، قادرة على توصيل افكاره في الظلام او حول الزوايا ، وهكذا اصبـح اللسان تحت امرة اليد . وبعد ذلك اضطلع اللسان بالامر كله ، خاصة عندما اصبحت اليد معطلة عن مشاركتـه لانشغالها بامر آخر غير التعبير وقد اصبح التابع (اللسان) حاذقا لمهمته ، حذقا جعله يتغلب على سيده (اليد) ذلك ان التمثيل الصوتي على الرغم من كونه في الاصل تقليدا للتمثيل اليدوي فانه في الواقع اكثر من ذلك ، فالشفتان واللسان ، والفكان ، اصبح بمقدورها ان تطور نوعا جديدا من الاشارات الخاصة بها ، ولكنها لا زالت حتى تلك اللحظة تقليدية ، ورمزية ، يجثم خلفها بعض الادراك .

بمثل هذا الايجاز فسر ريجارد بيجت نظريته في كتابه « اللغة الانسانية» مصورا اياها تصويرا حسنا . وبالاستناد الى الجذور الآرية ، ولغات الاقوام البدائيـة نظم مشروع نظريته وطبعها في كتاب دعاه « بابل » هذا الكتاب الذي سأقتطف منه المثال التالي (٩)

« اقرب طريق طبيعي للدلالة على كلمة (up) يكون بالاشارة الى اعلى بواسطة الاصبع ، وهـذه هي اشارة يدوية لـ (up) واذا ما قلدنا هذه الاشارة باللسان فاول شيء نفعله هو ان يمتد اللسان على ارضية الفم ، ثم يرتفع طرفه الى اعلى حتى يلمس سقف الحلق ، وبهذه العمليـة حصلنا على اشارة شفهية لـ (up) واذا ارفقنا هـذه الاشارة الشفهيـة بالصوت فسنحصل على الصوت (Al) و (al) هي الجذر الآري لكلمة up وكلمـة (altus) اللاتينية تعني (عال) وكلمة (ala) التي تتحقق بتحريك اللسان الى أعلى واسفل حركة مماثلة لخفق جناح الطائـر هي الكلمة اللاتينية التي تعني جناح وفي السامية (al) تعني اعلى (١٠) وفي لغات القبائل الاسترالية تعني (تسلق) وفي جميع انحاء العالم الجذر al مع تغيراته الاشارية at, atl, an, ar تنتج من تحريك اللسان الى أعلى وتمتزج بشيء يدل على العلو ، والشاهد اسماء تلك الجبال « الب (alps) ، أطلس atlas ، اندبز andes ، أورال ural ، أرارات arart وكغيره من المدافعين الماهرين ، انتقـد ريجارد بيجت بقساوة النظريات المنافسة لنظريته الخاصة، وقد دق بالتاكيد وتدا في نظرية bow-woow عندما اظهر بوضوح كيف ان تقليد الاصوات الطبيعية ــ حتى بالنسبة للرجل الحديث ــ لا يكون الا بواسطة الاستشهاد بمحاولات محالة ، فتقليد صياح الديك مثلا يدعوه الانكليزي (كوك ـ ا ـ دوو ـ ول دو ــ ويدعوه الالماني « ككريكي » ويدعـوه الفرنسي « كيركو » .

والقسم الجديد من نظرية ريجارد بيجت هو الموازي الذي رسمه بين تمثيل الاشارات باليد وتمثيل الاشارات باللسان وما جاوره .

وهناك من وضع نظرية مستقلة عن هذا الاصل في تفسير اللغة ولكن ليس بينهم من ذهب بعيدا في تطبيق نظريته او جعلها شاملة تتناول الميدان جميعه .

وللمثال بين السر (برسي نن) في كتاب نشر قبل عشر سنوات من نشر كتاب (اللغة الانسانية) تلك الكلمات الثابتة .

ان بعض الكلمات تظهر احيانا في المراحل النهائية ، كما لو كانت اشارات شفهية وكلمات اخرى تظهر كفضلة لتلك الكلمات او تكون بمثابة تعويضات طبيعية لحركات جسمية اوسع واحيانا تكون صورا صوتية ذات اصـل مستقل »

وقد أعطي هذه الكلمات (هنا) here ، وهناك there وانت you وانا me كتوضيحات على القاعدة فعندمـا يقول شخص ما you بصورة جيدة وبوضوح تندفع شفتاه نحو الشخص المقابل كما لو اشار بشفتيه بدلا من اصبعه وفي قول me شفتاه تنقبضان الى الداخل ، متجهتين نحو الشخص القائل ، وبواسطة اشارة مماثلة تتجه الاشـارة الشفهية بعيدا عن القائل في قوله there ونحو القائل في قوله here

دعنا الان نطرد رتب الكلمة ونلتفت الى الرتبة الثالثة فقط ، رتبة الاشياء فهذه الرتبة واسعة جدا حتى لتبتلع جميع الرتب الاخرى ، ولهذا فلا يظهر شيء بأي فرصـة

(٧) هذه الجملة في النص الاصلي معقدة ، ولا تسهل ترجمتها ، والمعنى هنا تقريبي مقتبس من طبيعة الاشارة التي تدل على محاولة تذكر.

(٨) راجع (اللغة الانسانية) تأليف ريشارد بيجت صفحة ١٣٢ .

(٩) بابل او ماضي اللغة الانسانية وحاضرها ومستقبلها .

(١٠) وفي العربية نلاحظ ان حكمة « اعلى » نفسها تشابه الى حد كبير في نطقها ما يقوله المؤلف .

صداقة

من مجموعة «لكل حب قصة» تصدر قريبا

✳

تأملي .. أبيننا ما بين عاشقين
فان تلاقينا أيندى الماء في اليدين
أينشف الكلام في تلعثم الفمين
أينشر الدم السخين ملء وجنتين
وهل نعيد ما نقول فوق مرتين
نسأل : كيف أنت أين كنت ؟.. أين
أتقرع الاجراس في خفقة مهجتين
كأن أفراح الوجود وقع نظرتين
وهل نخال كل شيء مثل مقلتين
لا تريان غيرنا في الدرب واقفين

تأملي نفسك ان خطوت خطوتين
أتشعرين أن في ساقيك نسمتين
وأن في يديك ان مشيت جانحين
وأن في رافعة النهدين جمرتين
تأملي .. أمثل هذا بيننا ترين
ما بيننا ما زال في الحيرة بين .. بين
نحن صديقان ولسنا بعد والهين

✶

أختاه .. من يدري فقد نصبح مغرمين
أما تكهربنا لدن عين رنت لعين

دمشق — شوقي بغدادي

في الرتبتين الاولى والثانية ، الا وظهر في فرصة اخرى في الرتبة الثالثة فهذه الرتبة تشمل ميدان الخبرة الانسانية جميعه ، انها تحتضن كل شيء يستطيع العقل البشري ان يفكر به ، او يتكلم عنه ، فعندما يتكلم العالم النفسي في مادته ، فانه يتكلم عن الافكار ، وهذه الافكار تحتاج الى التصنيف في الرتبة الثالثة ، وعندما يتكلم العالم اللغوي عن الالفاظ فهذه الالفاظ لا تكون عندئذ في الرتبة الثانية ولكنها حتما في الثالثة . وكيفما كان ففي الاحالة تترك الرتبة المستحقة فارغة ، وحتى اذا فرغت فانها ـ بسرعة ـ تمتلىء من جديد . اننا لا نستطيع التفكير عن الافكار بدون ان نملك افكارا اخرى مع التي نفكر عنها ، ونحن لا نستطيع الكلام عن الالفاظ بدون استعمال كلمات اخرى .

ولذلك فقد وصلنا الى النتيجة العامة وهي فيما يتعلق باللغة فان حالات المملكة الثلاث ، الافعال الثلاث التي تجعل العملية نافذة المفعول هي الافكار والاشياء والكلمات ولوضعها باحكام علمي ادق (نقول) الافكار ، والاشياء المشار اليها والاشارات ، وفي كل حادث كلامي هذه الرتب الثلاث تكون لازمة الحضور ومسالة وجودها في كل عمل تفكيري هي مسألة لم نطرق باب بحثها حتى الان .

العراق ـ عنه — سليم عبد الجبار

للفيلسوف الانجليزي :
برتراند رسل

الطريق الى السعادة

ترجمـة : عادل سلامة
ليسانس امتياز في الادب الانجليزي
دبلوم في التربية وعلم النفس



لا تتضمن صفحات هذا الكتاب(١) شيئا يحتاج فهمه الى فلسفة عميقة ، او علم واسع ، لاني لم اقصد من كتابته الى هؤلاء القوم الذين يعدون انفسهم من الخاصة، او الى اولئك الذين يعتبرون المشاكل العملية موضوعا جذابا للثرثرة وتبادل الحديث .

واني قصدت من كتابة هذا الكتاب الى اظهار بعض الاراء التي نتجت فيما اعتقد عن شيء من الحس والذوق العام .

واستطيع ان اقول اني آمنت بهذه الاراء عن خبرة ، بعد انطبقتها على تجاربي الشخصية ، واني اقتربت من السعادة حين قاربت بينها وبين حياتي الخاصة .

وان هذا ليبعث في الامل في أن يحب هؤلاء الملايين من الرجال والنساء الذين يساورهم الشقاء في حياتهم طريقا واضح المعالم نحو حياة افضل واكثر انتاجا .

الجزء الاول اسباب الشقاء

ما الذي يدفع الناس الى الشقاء

يشعر الحيوان بالسعادة ما دام يتمتع بالصحة الموفورة، والغذاء الكافي . وكذلك يجب ان يتمتع الانسان بالسعادة حين تسد هذه الحاجات . ولكن الواقع عكس ذلك في معظم الاحيان . فاذا كنت شقيا فان هناك ما يدعوك الى ان تعتقد انك لست فريدا في هذا الشعور ، اما اذا كنت سعيدا فلنسأل نفسك كم من الاصدقاء يشاركك هذا الاحساس ؟ فاذا اتممت عرضك لاصدقائك ، فلتعلم نفسك الفراسة ، ولتنظر في وجوه الناس الذين تلتقي بهم في يوم من ايامك العادية . وقديما قال بليك Blake

في كل وجه من الوجوه التي اراها استطيع ان اتبين علامات الضعف ، وامارات الاسى .

وانه وان تميزت هذه العلامات بعضها عن البعض الاخر ، فانها تجتمع حول مدلول واحد ، هو الشقاء .

قف ذات يوم في شارع من شوارع المدينة المزدحمة ، في ساعة من ساعات العمل ، او تمشَّ قليلاً في الميدان الرئيسي خلال عطلة نهاية الاسبوع ، او اغش حلقة من حلقات الرقص ذات مساء ، وتناسَ اثناء ذلك كل شيء عن نفسك واحساسك بذاتك ، ثم دع هذه الشخصيات الغريبة عنك والتي تدور حولك ، دعها تأخذ مكانا لها في شعورك الداخلي الواحدة تلو الاخرى حينذاك ستدرك ان كل فرد من هذه الجماهير له مشكلته الخاصة .

ففي ساعات العمل ستلتقي باناس يشعرون بالقلق والتوعك ، قد استولى عليهم الكفاح في سبيل العمل ، فهم لا يحسون ميلا الى المرح ، كما لا يولون رفقاءهم اي انتباه.

واذا خرجت الى الطريق العام خلال يوم من ايام اجازتك ، استطعت ان تتبين جماعات مختلفة من الرجال والنساء ، كل منهم قد اتخذ مظهرا حسنا ، ومظهر البعض منهم يدل على الثراء العظيم ، وقد شغلوا جميعا في متابعة اللذة والسرور . وجميعهم في ذلك يسيرون على وتيرة واحدة ، هي الوتيرة التي تسير عليها ابطأ سيارة في موكب ضخم من السيارات . ذلك ان قائد هذه السيارة لا يستطيع ان يتبين شيئا مما حوله ، لانه اذا التفت يمنة او يسرة فمعنى ذلك وقوع حادثة . وينتج عن ذلك ان قائد كل سيارة في الموكب له هم واحد هو ان يتقدم السيارات الاخرى ، ومع ذلك فمن المحقق انه لا يستطيع ذلك لازدحام المكان .

واذا عنّ له خاطر آخر بشغله عن القيادة كما يحدث احيانا لراكب سيارة لا تناط به مسئولية ما في قيادتها ، فان مصيره حتما سينتهي الى ايدي رجال البوليس ، ذلك انه سيكون حينذاك قد ارتكب حادثا من حوادث الصدام .

وعلى هذا فان المتعة في ايام الاجازة بالنسبة لهؤلاء تكاد تكون شيئا محرما .

واذا خطر لك ان تراقب قوما يمضون امسية مرحة فستقع عيناك حتما على اناس دخلوا القاعة ، وقد عقدوا العزم فيما بينهم وبين انفسهم على الا يحدثوا ضجيجا فيها ، غير انه مما يقال ان الشراب وسيلة من الوسائل المؤدية الى النشوة ، ولذلك فسترى هؤلاء الناس بعد ان يأخذ الشراب منهم مأخذه ، وقد بدأوا يصبون اللعنات على اللحظة التي ولدتهم فيها امهاتهم ، ذلك ان الشراب قد اطلق شعورهم بالخطيئة من عنانه ، وهو الشعور الذي يستطيع الناس أن يسيطروا عليه شيئا ما في حياتهم العادية .

واسباب الشقاء على اختلاف مظاهره ترجع اولا الى النظام الاجتماعي ، ثم الى التكوين النفسي للفرد ، وهو بطبيعة الحال خاضع لتأثير النظام الاجتماعي .

ولقد سبق ان تناولت في بعض كتاباتي التغيرات التي يجب ان تشمل المجتمع لتحقيق السعادة . ولا اود ان أتحدث في هذا الكتاب عن مشاكل الحرب ، والاستقلال الاقتصادي ، ولا عن نظم التعليم المختلة ، فانه مما لا شك فيه ان الحاجة اصبحت ملحة في هذا العصر الى وسيلة من الوسائل لمنع الحرب ، ولكن تحقيق ذلك يعد مستحيلا

١ ـ كتاب تحت الطبع باللغة العربية The Conquest of Happiness

في مجتمع يؤمن رجاله بان الموت افضل لديهم من الحياة ، كما ان محاربة الفقر امر ضروري ، ولكن ما هي الفائدة التي نجنيها اذا حققنا الثروة لكل انسان بينما يعاني الاغنياء في حياتهم بعض الوان الشقاء ؟ اما بالنسبة لنظم التعليم المختلة ، فانه لا يرجى من رجال نشأوا في ظل هذه النظم ان يحيدوا عنها .

كل هذه الاعتبارات تدعونا لان نركز اهتمامنا هنا في مشاكل الفرد ، وان نسأل انفسنا عن الخطوات التي يجب ان يتبعها رجل او امراة تعيش في ظل هذه النظم لتحقيق السعادة ؟ وساقصر حديثي حين اتناول الاجابة على هذا السؤال في هذه الصفحات على اولئك الاشخاص الذين لا يعانون فقراً مدقعا يشل حياتهم شللا تاما ، وانما سأفترض ان لكل منهم دخلا يستطيع به ان يسد حاجته ، كما سأفترض انه يتمتع بصحة عادية تمكنه من قضاء اموره بنفسه .

ولن اتناول في هذه الصفحات الموضوعات التي تتصل بالكوارث الفادحة ، كأن يفقد المرء كل ابنائه ، او يدنس شرفه ، فتلك موضوعات ينبغي ان يفرد الانسان لها بابا خاصا في الحديث ، وهي موضوعات مهمة ما في ذلك شك، ولكنها تخرج عن نطاق حديثنا في هذا الكتاب ، وانما نود في هذه الصفحات ان نعالج هذا الشعور بالشقاء الذي يعانيه سكان البلاد المتحضرة في حياتهم اليومية ، والذي لا يعرفون له اسبابا ظاهرة .

ويرجع هذا الشعور اولا وقبل كل شيء الى الفهم الخاطىء لحقائق الكون ، والى اتخاذ بعض المثل الاخلاقية الجوفاء ، واصطناع بعض الاساليب التي لا هدف لها في الحياة . وكل هذا يؤدى من غير شك الى تحطيم اي شعور بالبهجة او الارتياح عند القيام بعمل ما ، ذلك الشعور الذي لا بد منه ، والذي يتوقف عليه الى حد كبير اتجاه الانسان الى السعادة . ويستطيع الفرد ان يغير بما له من قدرة كامنة هذا الفهم الخاطىء للحياة ، وان يتغلب على هذه المثل الجوفاء ، والتقاليد البالية ، ونحن هنا في هذا الكتاب نقترح بعض الوسائل التي يستطيع الانسان ان يتخذها للتغلب على هذه المشاكل .

ولعل ابلغ مقدمة يمكن ان اقدم بها لهذه الفلسفة التي ادعو اليها هو ان ابدأ بالحديث عن نفسي ، فاني لم اولد سعيدا ، ولقد كانت انشودتي المفضلة في طفولتي هي تلك الانشودة التي تبدأ بهذا المطلع :

« لقد سئمت الارض كما ركبتني الخطايا »

وعندما بلغت الخامسة كان يخطر لي اني لو عمرت الى السبعين ، فمعنى ذلك انني ذقت حتى الان جزءا من اربعة عشر جزء من حياة ستكون من غير شك مليئة بالشرور والاضطراب . ولما مررت بمرحلة المراهقة كنت أمقت الحياة مقتا شديدا . حتى اني فكرت مرات ومرات في الانتحار ، ولم يمنعني من ذلك الا انني كنت اميل ميلا شديدا الى تعلم الرياضة والحساب . اما الان فاني أجد في الحياة متعة تزداد على مر الزمن ، ويرجع ذلك — الى حد ما — الى اني تبينت الاشياء التي كنت أرغب في تحقيقها رغبة شديدة ، والى اني تمكنت تدريجيا من تحقيق هذه الاشياء ، كما يرجع الى اني تمكنت من ان الغي من نفسي الغاء بعض الاشياء التي كنت اتمناها ، وذلك بعد ان ثبت ان تحقيقها شيء بعيد المنال . غير ان هذه المتعة ترجع في اساسها الى اني لا اشغل بالتفكير في نفسي الا قليلا ، ولقد كانت النشأة المتزمتة التي نشأتها جديرة بان تحملني على التفكير في خطاياي ، وهفواتي ونقائصي ، والواقع انه كان يبدو لي احيانا اني امروء سيء الحظ للغاية، ولكني تعلمت بالتدريج ان اقلل من اهتمامي بنفسي وبنقائصي ، كما امكنني ان اتدرب على تركيز اهتمامي في الموضوعات الخارجية ، كالموقف العالمي مثلا ، او في نواحي المعرفة ، او في الافراد الذين اشعر نحوهم بعطف خاص .

واذا كانت هذه الاشياء الخارجية تحمل معها بعض انطباعات الالم ، كأن تجتاح العالم حرب مريرة ، او ان يشعر الانسان بقصور عن اشباع رغبته في المعرفة ، او ان يموت احد الاصدقاء الاعزاء ، فان هذا النوع من الالم ليس مما يحطم جوهر الحياة بالنسبة للفرد لان هناك نوعا واحدا من خصائصه ان يفقد الانسان القدرة على تذوق الحياة ، وهو احتقار المرء لنفسه .

واهتمام المرء بمايدور خارج نطاق نفسه ، يدفعه الى القيام بنشاط متعدد النواحي ، وهذا النشاط اساس هام من الاسس التي تبعد المرء عن الشعور بالضيق والملل . اما اذا قصر المرء اهتمامه على نفسه فلن يدفع به ذلك الى الامام ، وانما قد يدعوه الى كتابة اليوميات ، او الى ان يحلل نفسه تحليلا ذاتيا ، ومن الجائز ان يدفعه ذلك الى الترهب . وحقيقة الامر ان الراهب لا يحس بالسعادة الا اذا انسته حياة الدير الرتيبة تفكيره في نفسه . معنى ذلك انه كان من الممكن له ان يحس بهذه السعادة التي احسها في رهبانيته اذا اشتغل كناسا ، او اذا اتخذ لنفسه اي عمل من هذا القبيل .

والنتيجة التي نخرج بها من هذا هو ان النظام الذي يتخذه الانسان في حياته هو الوسيلة الوحيدة المؤدية الى السعادة بالنسبة لاولئك الذين يشغلهم تفكيرهم في انفسهم عن اي شيء آخر .

والاهتمام بالذات له ظواهر متعددة . لعل ابرزها هو الشعور بالخطيئة ، والنرسيسية وجنون العظمة .

فاذا تحدثت عن الشخص الخاطىء ، فاني لا اعني ذلك الرجل الذي يرتكب الخطايا ، فكل فرد منا عرضة لذلك ، وانما اعني ذلك الرجل الذي اخذ منه الشعور بالخطيئة كل مأخذ . فان مثل هذا الرجل يظل يستنزل اللعنات على نفسه ، وهو يظن انها لعنات الله . ذلك انه يقارن دائما بين المثل الاعلى الذي صنعه لنفسه وبين واقع امره ، فاذا رأى الفارق شاسعا بين وضعه الحالي ، وبين الصورة التي اتخذها نبراسا له منذ ان ولدته امه ، فانه سيشعر دائما بالخطيئة ، وخاصة اذا انطلق شعوره الباطن تحت تأثير الخمر او غيرها من المؤثرات ، وذلك لانه لا يزال يؤمن في اعماق نفسه بالتقاليد التي فرضتها عليه بيئته في عهد الطفولة ، تلك التقاليد التي حدت من حريته في كل شيء ، وحرمت عليه انواعا من اللذة والسرور ، يحبها ويميل الى مزاولتها . وهو مع ذلك قد يزاول هذه الانواع وفي نفسه شيء كثير من الالم ، يختلط بالاحساس بالضعة . غير ان هناك شيئا واحدا تركته له هذه التقاليد ولم تضع له حدا، وهو الشعور بالرضا والاطمئنان الذي كان يخالجه حين كانت تداعبه امه ، وطبيعي ان الوقت سيأتي حين يفتقد المرء هذا الشعور فلا يجده ، فيضطره الامر الى ارتكاب

ما سمى في عرف المجتمع بالخطيئة ، ولعله يرتكبها في اندفاع شديد . فاذا شعر هذا النوع من الرجال بالحب ، فانه يطلب من حبيبته حنان الامومة ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع ان يتقبل منها هذا الشعور ، لانه لا يحترم أي امرأة تنحصر علاقته بها في الناحية الجنسية . وينتهي به الامر الى ان يصبح قاسيا ، جافي الطبع ، شديد الاحساس بالذنب ولوم النفس .

ولعل هذا هو الاساس في دراسة نفسية الاحداث والمجرمين ، فان المشكلة تبدأ لديهم بان يتخيلوا اشياء لا يمكن تحقيقها في الواقع ، كحب الام الذي يوشك ان يملك عليهم حياتهم كلها ، وان يقترن ذلك الحب بمجموعة بالية من التقاليد . واني لاعتقد ان الخطوة الاولى لتحرير هؤلاء التعساء هي التخلص من هذه المعتقدات ومن سيطرتها القوية على حياتهم ومشاعرهم .

اما اذا تحدثنا عن مرض النرسيسية Narcissism فانه في بعض نواحيه ، على طرفي نقيض مع مرض الشعور بالخطيئة ، وتتلخص اعراض هذا المرض في الاعجاب الدائم بالنفس ، وميل الشخص الى ان يعجب به من حوله ، وهذا شيء طبيعي في حد ذاته ، ولكنه اذا زاد عن الحد المعقول ، فانه يصبح مرضا خطيرا . فهناك عدد كبير من النساء ، وخاصة سيدات المجتمع منهن ، قد فقدن أي قدرة على الحب ، واخذتهن رغبة جامحة في ان يوليهن جميع الرجال كل الحب والاعجاب ، فاذا ايقنت أي امرأة من هؤلاء ان ثمت رجل يحبها لم تعد تلتفت اليه بعد ذلك ، لانها قد ارضت حاجتها بالنسبة اليه . ويمكن ان نقول هذه الحقيقة عن بعض الرجال . وقد كان هذا الموضوع هو الفكرة التي نسجت عليها قصة بعنوان علاقات خطرة تناولت طبيعة الحب بين ابناء الطبقة الارستقراطية في فرنسا قبيل ثورتها . فحيث يبلغ الاعتداد بالنفس بالانسان مبلغه ، يفقد المرء اهتمامه بالاشخاص الآخرين من حوله ، ومن ثم فانه يفقد اي رغبة في تبادل العطف والحب مع اخوانه من بني البشر . وقد يدفع اعجاب الناس بالمثالين والرسامين المشاهير مريض النرسيسية الى ان يتخذ من النحت والرسم دراسة له . ولكن لما كان هذا الفن بالنسبة اليه وسيلة لا غاية ، فان الدراسة في حد ذاتها لا تثير في نفسه أي شعور بالارتياح ، وتكون النتيجة المحتمة ان يبوء الانسان بالفشل ، وان يتلقى بدلا من الاعجاب والتقدير السخرية والاستهزاء .

ذلك ان اهم اسباب النجاح في العمل هو ان يشعر المرء بميل حقيقي نحو عمله ، وان يجد توافقا بين ميوله ، وبين طبيعة هذا العمل الذي يأخذ باسبابه . ولعل هذا هو السبب في ان عددا كبيرا من الساسة فشلوا في حياتهم بعد ان كانت البشائر تدل على عكس ذلك ، فان اعجابهم بانفسهم تملك عليهم شعورهم ، بدلا من ان يوجه هذا الشعور نحو المجتمع الذي يعيشون من اجله . ومعنى ذلك ان الرجل الذي يشغل بنفسه عن الناس ، لا يحوز ثقتهم ، ولا يشعر الناس باي اعجاب به ، ومن المحقق انه لن يستطيع ان يدرك اي نجاح نتيجة ذلك . فالغرور حين يجاوز حدا معينا يقتل اي شعور باللذة والارتياح يحس به الانسان عندما يزاول أي نشاط ، وينتهي الامر الى الشعور بالضيق والقلق . وينشأ هذا الشعور عادة عن فقدان الثقة في النفس ، كما ان علاجه ينحصر في اعادة هذه الثقة . ويكون ذلك بان يحاول الانسان بقدر الامكان ان يكون سلوكه ناتجا عن دوافع موضوعية بحتة ، لا تحددها نفس الفرد وميولها ومشتهياتها .

ويختلف الشخص المريض بحب العظمة ، عن مريض النرسيسية في انه يرغب في ان يخافه الناس ، لا ان يحبوه لانه يحب ان يكون شخصا قويا مهيبا لديهم ، لا محبوبا منهم . والى هذا النوع من الناس ينتمي عدد كبير من المجانين ، كما ينتمي اليه اكثر عظماء التاريخ .

على ن حب العظمة في ذاته مطلب طبيعي من مطالب النفس الانسانية غير ان نتائجه تسوء اذا زاد عن الحد المألوف ، او اذا اصطدم بوعي غير كامل بالحقيقة الواقعة . واذا حدث ذلك فانه سيؤدي بالانسان الى حياة شقية تعيسة . فقد يتمتع المجنون الذي سيتصور نفسه ملكا متوجا بشيء من الاحساس بالرضا ، ولكنة ليس من شك في ان هذا الاحساس ليس مما يرتضيه لنفسه انسان عاقل .

وكان الاسكندر المقدوني ينتمي الى ذلك الضرب من الناس الذين يحبون العظمة ، ولكنه افترق عن الجنون في شيء واحد ، وهو انه استطاع بما له من موهبة ، ان يحقق الاحلام التي تدور في خلده ، ولكن هذه الاحلام ظلت تتسع حتى خرجت عن الدائرة التي يمكن ان يدور في فلكها النشاط الانساني ، وذلك بعد ما زعم الاسكندر الاكبر لنفسه وللناس انه اصبح في مصاف الالهة ، بعد ان فاز بانتصاراته الباهرة . ولكن هل كان الاسكندر الاكبر رجلا سعيدا ؟ لعل هناك من الدلائل ما يشير الى عكس ذلك ، هناك اعتياده الخمر ، وثوراته العنيفة الجامحة ، وبعده عن النساء ، واخيرا ادعاؤه الالوهية ، كل ذلك من غير شك يدعونا للاعتقاد بان الاسكندر المقدوني لم يكن سعيدا ، فان الشعور بالارتياح لا يتولد من تنمية احدى نوازع الطبيعة البشرية على النوازع الاخرى ، كما انه لا يتولد اذا اعتبر الفرد هذا العالم ميدانا فسيحا جعل له ليرضي فيه شعوره بالعظمة .

والواقع ان مجنون العظمة ان هو الا ضحية لبعض عوامل الاضطهاد الشديد . فقد عانى نابليون في حياته الدراسية شعورا شديدا بالنقص . وذلك حين كان زملاؤه في المدرسة من ابناء الطبقة الثرية ، بينما كان ينتمي هو الى عائلة فقيرة محتاجة ، ولما اتيح له فيما بعد ان يصدر اوامره بعودة اللاجئين الفرنسيين الذين هجروا بلادهم خلال الثورة ، داخله شعور بالزهو اذ رأى زملاءه السابقين في الدراسة من ابناء الارستقراط يركعون امامه ، ولكن هذا الطموح ساقه الى طموح اكبر ، وانتهى به الامر الى المنفى في سانت هيلينا ومن الطبيعي ان تمتلئ حياة الفرد بالمصاعب والعقبات ، اذا سيطر عليه الشعور بالعظمة ، لانه ما من انسان يستطيع ان يكون قادرا على كل شيء ، ومن ثم فان تجاهل هذه الحقيقة يعني في حد ذاته الاصابة بالجنون . وعلى ذلك فاذا عرف الانسان قدر ذاته فهو سعيد حقا ، اما اذا آمن بقوته وعظمته وخرج عن النطاق المألوف فسينتهي به الامر الى مأساة مروعة .

الاسباب النفسية للشقاء اذن كثيرة ومتعددة ، غير ان هناك عاملا واحدا يربط بينها ، فالرجل الشقي حقا هو ذلك الرجل الذي حرم في شبابه مطلبا طبيعيا من مطالب حياته ، فكانت النتيجة انه قدر هذا المطلب بقيمة اكبر مما هو اهل له بالفعل ، واندفع بعد ذلك الى تحقيقه على حساب المطالب الطبيعية الاخرى .

قصة عراقية

الفرحة الكبرى

بقلم عبد الله نيازي

حين لمحه معروضا في واجهة المكتبة للمرة الثالثة ، احس ان شيئا يتلوى في اعماقه ويدفعه الى عمل اي شيء غير عادي ، فود له ان يستطيع ان يختطف الكتاب اختطافا ويمضي به الى مكان هادىء لا يبرحه حتى يفرغ منه .. فوقف يتأمله طويلا وقد نسي كل ما حوله من ضجيج ، وحسرة عميقة تمزق احشاءه . ولو لم يربت على كتفه صديقه « احمد » ويذكره انه لم يبق بينه وبين الساعة التاسعة الا بضع دقائق لظل ينظر اليه غير ملتفت الى شيء ، حتى الدائرة التي يقبر فيها حياته الطرية لقاء بضعة دنانير كل ما تفعله لاجله هي ان تجعله يحيا حياة اشبه بالعدم . حياة تافهة كأتفه ما تكون .. وبحركة بطيئة جدا وجد نفسه يستدير ويمضي الى حيث يعمل ، كآلة صغيرة توقفت لحظة عن الحركة لسبب طاريء ، حتى اذا امتدت اليها يد خبيرة ، حركتها قليلا . مضت تدور برتابة مؤدية العمل الذي صنعت من اجله بكل دقة ونظام ..

كان الكتاب يبحث في الفن والادب ويشرحهما شرحا وافيا منذ بدأ الانسان يفكر بهما .. وحين وجده معروضا للمرة الاولى وقف يقلبه بامعان ويستعرض فصوله فصلا فصلا ، وتمنى لو انه اقتناه ووقف على ما فيه . ولقد هم ان يدفع للبائع ثمنه لو لم يتذكر ان الدينار الذي في جيبه ينبغي ان يسلمه الى دائرة الكهرباء صباح ذلك اليوم والا قطع عنه الضياء . وبانقطاعه تحدث ازمة لا يظن انه يستطيع حلها بسهولة ، فتركه مكرها ومضى ليدفن ايامه الفضة في ابغض مكان لديه ..

وفي اليوم التالي تغاضى عنه كما يتغاضى المدنف عن حبيبته والنار تأكل جوانحه. ومضى وهو يحاول ان يتجاهل ان كتابا جديدا قيما ظهر للوجود . ولكي يدخل الطمأنينة الى نفسه راح يذم القراءة بكل ما يستطيع من قوة ويعيد على مسامعه كل مساوئها .. فلقد ظل يقرأ باستمرار بضع سنوات بنهم لا يوصف ، ولكنها لم تجلب له غير الالم العميق . نعم . انها استطاعت ان تنمي مداركه وتوسع من افقه ، ولكن ما نفعهما اذا هما لم يجلبا له غير السخرية والاستهزاء ؟! .. ثم ، انها هي التي ارهفت حسه على هذا النحو الذي يقاسي منه الامرين .. فلم اذن يحزن اذا وجد كتابا جديدا ولم يستطع ان يشتريه ؟.. الم يتمنَّ كثيرا ان يكون كسائر الناس !! نقطة ضائعة وسط هذا البحر اللجب ؟ .. نقطة صغيرة لا يمس بها احد ولا يشعر بها مخلوق ، تلتمع في ذاتها التماعة واهنة ثم تنطفىء في العدم السرمدي وكأنها لم تكن ، فلم اذن يحاول في لحظات مجنونة ان يكون شيئا في هذه الحياة ؟ .. أي شيء سيجني ؟ الخلود !! .. عند من ؟! .. عند اناس اموات.. يذكرونه ثم يموتون ؟! .. وتمتم بحزن : سخافة ...

كان يأسه او عدم حصوله على الكتاب يوحي اليه بمثل هذه الاشياء السوداوية . ولكنه رغم ذلك كاد ينسى كل شيء حين غرق في عمله الرتيب ، كاد ينسى القراءة والكتابة وكل ما يتعلق بهما . ولم يبق ما يدور في راسه غير عمله الرتيب المتواصل ، عمله الذي يكرهه بعمق ، بل راح يتابع زملاءه في حديثهم الميت المتكرر ، ويشاركهم شعورهم بالفرحة الكبرى للعلاوة الجديدة التي ما زالت الحكومة تعد بها .. يشاركهم شعورهم وفرحهم كما لو

وفي عصرنا الحديث مظهر آخر من مظاهر الشقاء . فهناك صنف من الناس يداخله شعور بالانهيار التام الى درجة يصعب معها عليه ان يحدد لنفسه وسيلة يصل بها الى الرضاء التام ، وانما يصبح كل همه في الحياة ان يبقى مغمورا لا ذكر له ، وان يستعين عليها بوسائل تجعله في الواقع في عداد الاموات . فاحتساء الخمر مثلا هو احدى وسائل الانتحار ، والنشوة التي يشعر بها الفرد حينذاك ان هي الا سعادة مؤقتة ، او هي في حقيقة الامر لحظة يخف فيها شعور الانسان بالشقاء .

واذا كان مريض النرسيسية ، او المجنون بحب العظمة يؤمنان بامكان تحقيق السعادة وان كانا يتخذان لذلك طريقا غير سوي ، فان السكير ومن على شاكلته قد فقدوا كل امل في الوصول الى السعادة ، ولذلك فان اول خطوة تتخذ في علاجه هو اقناعه بان السعادة شيء يمكن تحقيقه. ولعل هناك بعض القوم ممن يحسون الشقاء ، يباهون بهذه الحقيقة ، وهم في ذلك اشبه بالثعلب الذي فقد ذنبه ، ويمكن ان نقنع هؤلاء بانه في الامكان دائما ان ننمي ذنبا جديدا . فالقليل من الناس من يختار طريق الشقاء اذا خير بين الطريقين . وهم موجودون بالفعل ، وان كان ذلك لا يدعونا الى ان نعلق اهمية ما على آرائهم .

ولذلك فاني ساوجه حديثي في هذه الصفحات الى اولئك الذين يفضلون طريق السعادة ، ولست اعلم ما اذا كنت ساصل بهم الى النهاية المنشودة ، ولكنها محاولة لا ضير من القيام بها .

القاهرة — عادل سلامة

ان العلاوة المرتقبة هذه هي اقصى ما يمكن ان يناله في هذه الحياة ...

وفي العصر التقى صديقه « احمد » وما كاد يجلس ويمضي بهما الحديث الى الادب حتى ذكر له صديقه الكتاب الجديد ، وبذكره له القى الجمرة في اعماقه .. كان يريد ان ينساه او يتجاهله على الاقل ، ولكن صديقه « احمد » ابى الا ان يذكره له ويسهب في مدحه والثناء عليه ..

لم يكن « سالم » يدري اي شيء يعمل او ماذا يقول فظل صامتا كالمأخوذ واشياء كثيرة تتلوى في اعماقه وتدفعه الى عمل شيء . ولم يطق صبرا . فمد اليه يده ، وهو امر لم يتعوده ابدا ، وطلب منه ان يقرضه دينارا ويشتري الكتاب . لم يبخل عليه صديقه بالمبلغ ، وبعد دقائق كان « سالم » يطوف المكتبات واحدة واحدة يبحث عن الكتاب. ولكن الكتاب كان قد نفد ... ولم ييأس فركب سيارة الى « الباب الشرقي » عله يجده في المكتبات القليلة الموجودة هناك ، ولكن الكتاب كان قد نفذ ولم يبق له اثر في السوق .. فضحك .. ضحك من اعماقه ، وعادت الصور القاتمة توحي له باشياء كثيرة ، وكلها تذم القراءة وتستقبح هذه العادة السخيفة ، وعلى غير شعور منه ، وكأنما اراد ان ينتقم لنفسه من هذه الخيبة التي مني بها ، وجد نفسه يجلس في مكان هادىء بالقرب من دجلة وامامه قنينة مملوءة بالعرق .. وبعد الكأس الثانية كادت الخمرة توحي له انه شيء ضائع . عبقرية ضائعة وسط اناس لا تحس .. وزاده هذا الاحساس الما ...

لم يذكر الكتاب لصديقه احمد في اليوم التالي ، ولم يقل له أي شيء . بل راح يمتدح الكتاب ويوهمه انه ماض في قراءته .. وحين وجد الكتاب معروضا في واجهة المكتبة بعد اكثر من اسبوعين ، كان يملك حينذاك دينارا فوقف يقلبه ثانية ويستعرض فصوله مجددا ، وود لو ان للبائع سلطة عليه فيمد يده الى جيبه وينتزع منه الثمن انتزاعا ويريحه ، اجل ، لقد كان يملك دينارا ، ولكن زميلا له في الدائرة كان قد وعده بشراء حذاء له بالنسيئة من بائع يعرفه ، فقد مضت بضعة شهور وهو يرقع حذاءه الذي اشتراه منذ ما يقارب السنتين ، حتى لم يعد يليق به ان يلبسه كموظف على الاقل لا كشاب يريد ان يظهر بمظهر لائق .. كان يود ان للبائع سلطة عليه فينتزع منه الثمن ويسلمه الكتاب . ولكن نظرة واحدة الى حذائه البالي جعلته يشعر بكآبة عميقة . فترك الكتاب ومضى كطعين يبحث عن معزل يداوي فيه جرحه ... واشترى حذاء جديدا في ذلك اليوم ونفد الكتاب من الاسواق مرة ثانية ، واحس براحة ، فقد كان يخيل اليه انه سيكون اهدا بالا اذا كان الكتاب غير موجود ..

ولكن اسابيع قليلة اخرى لم تمض حتى لمح الكتاب معروضا للمرة الثالثة. فشعر بشيء غامض يتيقظ في اعماقه .. اي شيء يفعل حتى يستطيع الحصول على هذا الكتاب ؟.. ولقد كاد يفعل في هذه المرة ويشتريه لو انه كان يملك ثمنه ، فوقف ينظر اليه طويلا وقد سهى عن كل ما حوله .. ما كان يرى غير الكتاب .. وقد كان يخمن انه عظيم . فالمؤلف اجنبي مشهور ، والمعرب قدير في التعريب وهو ضخم تزيد صفحاته على الخمسمائة ، ومنذ ان تصفحه للمرة الاولى ووقع نظره على ما تحويه فصوله ، احس احساسا عميقا ان ثقافته ستظل ناقصة اذا هو لم يقرأ الكتاب بامعان ويتدبره جيدا . ولكن كيف يستطيع الحصول عليه ! .

لقد ظل ينظر اليه بذهول واشياء كثيرة تموت في اعماقه ولو لم يذكره « احمد » بوجوب الذهاب الى الدائرة لظل ينظر اليه غير ملتفت الى كل ما حوله .. وفي الطريق جعل يستعيد بعض فصول حياته والشقاء الذي يعانيه في سبيل الحصول على كتاب يقراه . رغم كل شيء ، رغم يأسه وسخطه ، وتشاؤمه وفقره ... ان العادة ، عادة القراءة قد تمكنت منه وتحكمت فيه ولم يعد له فيها اختيار ...

فلقد حاول مرة ان يبعد عنه شبح القراءة ولا يجعل كتابا يقع في يده ، فالقى بكتبه بعيدا عن عينه، وجعل يتحاشى المرور من امام المكتبات ويلهي نفسه باشياء اخرى لا تمت الى القراءة بصلة .. ولكنه لم يستطع ان يصبر اكثر من اسبوع وبعض اسبوع ، وهي اطول مدة قضاها دون ان يقرأ فيها شيئا .. فقد احس بفراغ رهيب لا يملؤه شيء فما كان يستقر في مقهى حتى يدعها الى حيث لا يدري ، يجوب الشوارع او يذهب الى ساحل النهر يتملى السكون ويبحث فيه عن اشياء كثيرة لا يدرك كنهها ولكنه يحس انها تنقصه .. حتى اذا عاد الى المقهى ثانية جلس ينظر الى الناس وهم يلعبون الطاولة او الدومنة والبهجة تشع في وجوههم ، ينظر اليهم ويغبطهم ويتمنى لو انه هو ايضا يستطيع ان يملأ هذا الفراغ الذي يحسه بلعبة واحدة من الدومنة كما يفعل اولئك الذين يجلسون حوله ويملؤن كل ما يشعرون به من فراغ بلعبة واحدة من تلك اللعب التافهة . ولكن فراغه ما كان يملؤه شيء غير القراءة ، فقد كانت تطارده في كل مكان كالداء العضال ، لا يختفي الا ليعود كأقوى ما يكون ..

وما كاد يبلغ الدائرة حتى تذكر شيئا كما لو انه الهم براي لا يدري كيف غاب عنه . ماذا يحدث له لو انه عاد الى المكتبة وسأل صاحبها ان يعطيه الكتاب على ان ينقده الثمن فيما بعد ، حين يتسلم راتبه . وليس بينه وبين موعد الراتب غير ايام معدودات ، وقد ضمن ان صاحب المكتبة سيعطيه اياه ، فهو يعرفه جيدا ، فكثيرا ما كان يبتاع منه كتابا ، فنسي الوقت والدائرة ورجع .. ولكنه ما كاد يصل حتى وجد ان الكتاب كان قد بيع منذ لحظات ... ولقد اخبره صاحب المكتبة انه كان قد احتفظ به لزبون منذ اكثر من اسبوع ولكنه لم يأت ..

لم يشأ « سالم » ان يقول اي شيء ، انما نظر الى البائع نظرة حزينة واستدار الى حيث يقبر ايامه الفضة ، الى حيث يجبر على سماع احاديث زملائه الميتة المتكررة ، ويشاركهم شعورهم بالفرحة الكبرى للعلاوة الجديدة المنتظرة ... بصمت متناه ...

بغداد

عبد الله نيازي

في ليالي العيد

في زوايا بيروت حانات مظلمة وشباب ...

O

في ليالي العيد والنسيـان والعام الجديد
ذكريات كالرؤى ماتت كأنـداء الورود
ذكريات يبست فيها رؤى الفجر الوليـد
آه من ذكرى ومن ذكرى ومن ماضٍ زهيد
في ليالينا انين القيد في جلد العبيـد
والدروب السود والوحل واحلام الجليد
أي شيء نحن في الآفاق في المدّ البعيد
أي شيء ، أي صمت فارغ ميت بليـد
والغد المشلوح في الامس المدمّى بالقيود
ماتت الرؤيا وخم اليأس في قبر الجمود
في مدانا رقصة الأفعى وأقزام القرود
والعيون البله والعتم عـلى شط الوجود
جيف موتى ولحـم بـارد في فـكٍّ دود
والصخور البكم والانات تعوي في اللحود
أيّ عيد أي ذكرى أي حرمان مبيـد .
واختلاج الحانة الصفراء في العتم العنيد
صور مجنونة كالريـح كالوهم الطّريـد
في مدى «الزيتونة» الخضراء والعام الجديد
بعض شيء من تفاهات الرؤى رؤيا العبيد

الجامعة الامريكيـة　　فـؤاد رفقـه

شعراء خالدون: هنري وادزورث لونكفيلو

بقلم هنري ودانا توماس

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

قد كانت نيو انكلند في اوائل القرن التاسع عشر، بلاد البحارة، والتجار، والفلاحين، والرواد. لم يكن هؤلاء جميعا محملين باثقال الغنى المفرط، ولا بمصاعب الفقر المدقع. فأرضهم كانت منبتا لاشجار الصنوبر الحية، وليست مكانا للاهرام الميتة. وسكانهم لم يهمهم شيء سوى تشييد المستقبل بدلا من نبش الماضي. وكانوا يعيشون عيشة ضنكة ويحاربون بعنف وقسوة، ومجتمعهم هو على اشد ما يكون من العناد والشجاعة، والافتخار بما انجز من تقدم مادي واخلاقي. وهذا ما جعل الناس حينئذ لا يأبهون بالالقاب والرتب. لانهم روضوا قارة وخلقوا ديمقراطية. ومع هذا، فقد مقتوا من اجل الصفات نفسها التي جعلتهم فريدين بين انواع البشر. ذلك بان شعوب العالم القديم نظرت الى شعوب العالم الجديد، فحسبتهم حشدا من بناة الطرق، عضلاتهم مرنة متينة، واذهانهم جافة متحجرة - فهم رجال صارعوا مساحات شاسعة من التربة، ولم يشعروا الا بايسر الاهتمام بمناطق الروح التي هي اكثر اتساعا واعظم قدرا. قال الاوروبيون ان اخوة عيسو الامريكان باعوا حق ولادتهم الفنية بما تيسر من الطعام، وكانوا في قولهم هذا، متهكمين ساخرين.

وقد كان الامريكان مستعدين للاعتراف بهذه التهمة. حتى الاسر العريقة في نيو انكلند عادت الى احضان العالم القديم، لتستلم نعم الثقافة الاوروبية، وهي في ذلك تمثل الابناء المترفين حين يضطرون الى العودة الى آبائهم. ولم يخطر على بال احد بان روح الرجل الشهم يمكن ان تترعرع في مفاوز امريكا. كانت نيو انكلند مستعمرة بريطانية، من الناحيتين العقلية والاخلاقية، حتى بعد فوزها باستقلالها السياسي بمدة طويلة. ولكنها واصلت نضالها تدريجيا، فاحرزت نصرها في حرب استقلالها الثقافي. وهنري لونكفيلو [١٨٠٧ - ١٨٨٢] هو واشنطن هذه الثورة الامريكية الثانية التي لم تسفك فيها دماء.

* * *

ولد في مدينة بورتلاند على ساحل (مين) الصخري الناتيء. وقد عرف اسلافه بميزاتهم العسكرية والقضائية في سجلات نيو انكلند. اما جده، من جهة والدته فكان الجنرال بيليغ وادزورث، وهو بطل من ابطال (الحرب الثورية). واما جده الآخر فكان قاضيا مشهورا، هذا، بالاضافة الى ابيه الذي كان عضوا في مجلس (الكونغرس) واحد الذين رشحوا انفسهم لمنصب رئاسة الجمهورية. واذا تتبعنا اصول اسرته بعيدا في اغوار التاريخ، فان لونكفيلو في وسعه ان يعد اربعة من اجداده الذين انخرطوا في حزب May Flower واحد هؤلاء هو جون اولدن. وعلى هذا فآل لونكفيلو ينحدرون من النخبة الممتازة في نيو انكلند. ومن هنا فان تربية هنري كانت ارستقراطية كمولده. فمن البداية تربى « على عادات الاحترام، والطاعة، والايثار، والخوف من الديون، والايمان بانجاز واجبه ». تحدث عنه معلمه الاول، وهو لم يزل في الخامسة، فقال « كان سلوك هنري في الربع الاخير من السنة، سلوكا صحيحا، لطيفا ». وفي كلية (باودون) التي دخلها قبل السادسة عشرة من عمره، « كان دائما رفيع الشأن في سحنته، وانموذجا في اخلاقه وعاداته ». وفي الثامنة عشرة قال ان النساء الوحيدات اللائي لقيهن « كن مقدسات معبودات - ينبغي انعام النظر فيهن، والتكلم معهن ليس غير ». حضر حفلات الرقص، ولكنه لم يرقص قط الا مع السيدات العجائز « لعل اهتمامه بهن يقدم لهن شيئا من المسرة ». وهذا ما جعله يمثل دور التلميذ المخلص لارسطو، في اعتناقه للقاعدة الذهبية « لا شيء من الاسراف ». هكذا كانت روح الفيلسوف في اعتداله، وهذا ليس من شأن الشعراء ابدا. فالشعراء المعاصرون في انكلترا - من اضراب شيللي، وبايرون، وكيتس. لا يسعهم العيش في الجو (البيوريتاني) الذي ساد نيو انكلند.

عاش في بيت مليء بالكتب والموسيقى والمناقشات الادبية ومن اجل ذلك فلم يكن من المستبعد، ان يبدأ في قرض الشعر في باكورة عمره. وفي الكلية صمم تصميما جازما على انتهاج درب الادب. ولكن اباه حذره من طرق مثل هذا السبيل، وذلك في رسالة بعثها الى هنري في كلية (باودون) لان امريكا غير قادرة على اعالة رجال الادب. ومع هذا، فان وجه الفنان المثقف، وجه والد لونكفيلو، كان مستخفيا تحت قناع (اليانكي) الحاذق اللبيب. بدأ الاب رسالته بانذار عملي، وانهاها بنقد للشعر، جاء فيها « لحظت بعض الشعر في (U.S. Literary Gazette) ومن تذييله احسبه من قلمك. نتاجك هذا بديع جدا، وقد قرأته بمزيد من الحبور. ولكن البيت الثاني من

المقطوعة السادسة ، له اوزان كثيرة ، وهذا ما لن يفوتك الشعور به » .

وبينا كان لونكفيلو يعمل فكره من اجل مسلكه في المستقبل ، تدخل القدر لصياغته . اذ خلا كرسي اللغات الحديثة في (باودون) فقدم الى هنري حين تخرجه ، بشرط ان يسافر الى اوربا ويتعرف على اللغات بنفسه مباشرة . فابحر الى اوربا بكل التلهف الذي يلازم الشاعر الشاب ، اعتمادا منه على مبدأ « كل لغة برجل » . وصل فرنسا ، وكتب من اوتويل ، بان الحالة على ما يرام ، ومما جاء في رسالته قوله « يسعني سماع الحديث الفرنسي في كل وقت ، فالفرنسيون يتكلمون دائما » . سافر في طول البلاد وعرضها ، وبيده قيثارة ، فمزج دراساته الادبية بالدراسات الموسيقية . ثم طوف في اسبانيا ، وايطاليا ، والمانيا ، واينما حل وارتحل ، كانت روحه اللطيفة ، تتقدمه كأنها الضياء اللامع . وسحنته نفسها كانت « رسالة تزكية » . وبالاضافة الى شخصيته الاخاذة ، عرف بقابليته لالتقاط اللغات .

وبعد ثلاث سنوات من الدراسة في الخارج عاد الى بورتلاند ، عالما لغويا مختصا بفنه . ولكنه الآن اظهر براعة عظيمة في الاعمال الحرة كبراعته في اللغات : فرفض قبول اي وظيفة اقل مرتبة من الاستاذية في « باودون » وهذا ما جعل مجلس امناء الكلية يصدر قرارا جاء فيه : « ان مجلس امناء كلية باودون عقد جلسة في الاول من سبتمبر ١٨٢٩ فنظر في رفض المستر هنري . دبليو . لونكفيلو لمنصب المدرس في اللغات الحديثة ، وبعد المداولة واخذ الاصوات ، قرر المجلس المذكور ترشيحه استاذا للغات الحديثة ، وقد قبل المستر هـ. دبليو بهذا الاختيار » .

كان هنري في الثانية والعشرين في هذا الوقت . والى الآن كانت هبات الآلهة تتوالى عليه ، ثم هبطت عليه نعمة سامية اخرى . ففي يوم من ايام الاحد ، لحظ ماري بوتر في الكنيسة ، وهذه هي احدى اترابه في المدرسة ، لم يكن قد شاهدها لعدة سنوات ، وفي غضون هذه الغيبة نمت الفتاة ، فاصبحت شابة على قسط وافر من الجمال . وبوقار الاستاذية اقنع اخته لتعرفه بالانسة بوتر ، وبشغفه الشاعري اغرى الانسة بوتر لتغدو زوجته .

ان الحب يسعه العيش على كسر الخبز المطيبة بالملاطفات . وهكذا كان ، فقد استقر الاستاذ الشاب وزوجته في دار ، معتمدين على ثمانمائة دولار في السنة ، وكانت اشجار الدردار تظل هذا البيت ، على حين ان كل ما يحيط بهما من هذه الاشياء الحية « ترسل اغنية المرح لملاقاة الشمس المشرقة » .

* * *

ثم اخذ الضجر من لونكفيلو مأخذه . فلم يقتنع بالمنصب الذي اسند اليه . ذلك بانه رغب في ان يؤثر في تكوين ادب بلاده الوليد . اتهم الاوروبيون الامريكيين بأن مشاريعهم المالية ابتلعتهم ، فلم يعودوا يلتفتون الى اي شيء آخر . تأثر لونكفيلو بهذا النقد انه جرب الوعي الذاتي لرائد من رواد الادب ، يعمل بين رواد التربة . فعليه اذن الانضمام الى زملائه المخاطرين في الروح — من اضراب كوبر وبريانت وارفنغ ووتيير — كي يستنفر مواطنيه الى السلاح . ثم عليه ان يثبت بان مجد الامة الحق ، لا يتضمن في مدى فتوحاتها المادية بل في آفاق انجازاتها العقلية والاخلاقية . صحيح ان مواطنيه كانوا يبنون هيكلا رائعا للحضارة . ولكن مثل هذا الهيكل كان جسدا بلا روح .

اراد لونكفيلو ان يكرس نفسه لبناء روح الثقافة الامريكية ، وذلك بالاتفاق مع زملائه المثقفين . وفوق كل شيء رغب في ابداع ادب امريكي لجمهور امريكي . ولكن واجباته في التعليم ، استنزفت الجزء الاعظم من وقته . وقد ازدادت هذه الواجبات بسبب تخلي الاستاذ تكنور ، مدرس اللغات الحديثة في هارفرد ، عن منصبه . قدم هذا الكرسي الى لونكفيلو على ان « يسافر ويوسع معلوماته » وذلك بزيارة المراكز الثقافية في اوروبا . وقد رافقته زوجته الجميلة ، في سفرته الثانية هذه ، فجالا في كل مكان ، « خلال سعادة غير متقطعة ، بين جنيات ارض الجن المسحورة » .

كتبت ماري لونكفيلو رسائل مفرحة وجهتها الى اهلها ، وفيها تصف ملاقاتهما لاسرة كارليل في لندن ، وزيارتهما لقصر الملك السويدي ، وما تناولاه من اطعمة شهية على الموائد في حفلات العشاء وفي كوبنهاغن . كيف لا وليس احسن من ان تحب زوجة الاستاذ اللامع ، ولا الطف من ان يعجب بها — يكفي انها حية حسب ! وفجأة انقطعت هذه الرسائل بملاحظة من هنري جاء فيها : « لم تعد حبيبتنا ماري في الوجود » .

* * *

ماتت في صبيحة يوم من ايام الاحد ، في روتردام — ليس من الم اصابها ، وانما درجت الى نهايتها بكل هدوء وسكينة . كانت قد وضعت طفلا ناقصا قبل وفاتها بثلاثة اسابيع ، وفي اثناء هذه المدة عانت آلاما جثمانية وعقلية شديدة . فظل زوجها عند فراشها ، ويدها بيده ، يرقبها عن كثب ، في حين كانت نسمة حياتها في انحسار تدريجي . وما ان اقبلت الخاتمة حتى لفظت انفاسها ، من غير الم وهي في وعيها التام . وقبل وفاتها بدقائق وضعت ذراعيها حول عنق زوجها وقالت : « عزيزي هنري ، لا تنسني » ثم اغمضت عينيها بابتسامة عذبة فيها معنى السلام ، ثم قالت : « انا لست ميتة ، انا لن انام . انما تيقظت من حلم الحياة » .

هكذا كانت الضربة الفجائية التي احنت رأس الشاعر . جمع ملابسها وارسلها الى اختها ، في الوطن ، مع ملاحظة مؤداها انه قاسى في انجاز هذا العمل السهل ما لا يسعه وصفه . ثم ادرك ان العالم بعد الحزن شيئا لا صلة له بالرجولة ، وانه يشك فيما يظهر من العلامات المعبرة عن الاسى . ومن اجل ذلك اخفى انفعاله الذي لا يحكى تحت قناع من الرزانة الفرحة . ولكن كانت ثمة ساعات ، قال عنها « بدا لي في اثنائها كأن قلبي يوشك على الانفطار . . . » اذ استدعت الماضي آلاف من الافكار المتداعية . فمجرد نظرة — او صوت — او رائحة زهرة كانت تنبهه الى هذا الماضي .

وفي هذا يقول في رسالة له « عزيزتي اليزا ، ومع هذا ، ففي ايام قلائل سنذهب جميعا . وسيأخذ غيرنا محلنا فيحزنون ، كما نحن فاعلون الآن . وسنقول كم كنا اطفالا حين ولو لنا باكين على اشياء زائلة هكذا ... » ولما اكمل الرسالة التي وجهها الى اخت زوجته الراحلة وضعها بين دراساته عن الادب الالماني .

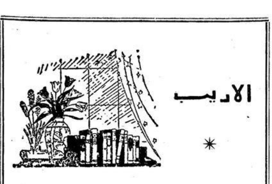
وبعد انقضاء سنة قفل عائدا الى الوطن حيث تسلم منصب استاذية (سمث) لتدريس اللغات الحية في هارفرد . ثم اقبل الى كيمبردج في شتاء عامه التاسع والعشرين واسس مركز (كريجي هاوس) التاريخي . وهذا المسكن الاستعماري القديم المشهور اصبح مقرا للجنرال واشنطن خلال حصار بوسطن في الحرب الثورية . وهو يقع في شارع (براتل) في محلة تدعى (توري رو) . وهنا عاشت الارستقراطية الثرية ، ارستقراطية نيو انكلند سواء منهم الملكيون او الموالون للثورة . هؤلاء الذين يملكون المزارع في جزر الهند الغربية ، واصحاب السفن ، واسياد العبيد. وبعد الحرب انتقلت ملكية الدار الى يدي اندرو كريجي ، وهو صيدلي عام ، كان يعمل في المصلحة الشمالية الخاضعة للجيش الثوري . وقد اضاف هذا الرجل الى البناء عدة اضافات ، فجعله موئلا للوفادة ، يقصده عدد من الزوار البارزين من الشواطيء الغربية . ولكنه مات فقيرا تاركا وراءه ارملة ، اجبرت على ايجار غرف البيت الواسعة للمستاجرين . ثم غدة السيدة كريجي شخصية اسطورية بين تلامذة الكلية . فكانت تمشي في باحات الدار تعلوها عمامة بيضاء ، فتعزف انغاما نصف منسية ، تعزفها على البيان ، ثم تقرا ما تشاء من كتابات فولتير .

ولما جاء لونكفيلو الى المكان بحثا عن سكن له ، استجمعت نفسها بوقار ، وقادته الى عدة حجرات ، واصفة له تقاليد كل منها وتاريخها ، وكلما اوصدت بابا خلفها نطقت بهذه الكلمات « ولكن لا يسعك اخذ الحجرة » . وفي الختام عينت له الحجرة التي هو اهل لها ، بعد ان فسرت له امجاد الماضي الزائلة قائلة : « هذه كانت مخدع الجنرال واشنطن » وفي غضون صيف السنة التالية ، هاجمت الحشرات اشجار الدردار الرائعة التي كانت امام الدار ، فاعملت فيها نخرا وتخريبا . جلست السيدة كريجي لتقرا امام الشباك المفتوح ، في حين كانت الحشرات تزحف على الاوراق ، وتلف انفسها بثيابها وعمامتها . ولما جاءها لونكفيلو ليسالها عما اتخذت من خطوات لابادة الحشرات ، نظرت اليه ، وقالت بصوت وقور زاجر « ايها الشاب الصغير ، انهن صديقاتنا او ليس من حقهن ان يعشن كما نفعل نحن ؟ »

هكذا كان الجو الظريف ، الذي عاش فيه لونكفيلو ، وعلم واولم الولائم ، وكتب . وعلى مائدته المستديرة ، وبرفقة طلابه ، تفضل ان يقود هؤلاء الى بعض « العبارات غير اللائقة » التي تفوه بها الكتاب الفرنسيون . وغالبا كان ياتي الى بوسطن وبروكلن . حيث كان مثارا للاعجاب في الحفلات . فلم يتخلف قط عن الرقص مع السيدات المسنات . قال في هذا الخصوص « يتهافت الشبان على الشابات ، وهذا ما يحدو (بشخص ما) ان يكون لطيفا مع النسوة المتقدمات في العمر » .

ومن هنا كان محبوبا عندهن جميعا ؛ كبارهن

الاديب



✳

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيه ونصف او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيها او ٦٠ دولارا كحد اعلى

✶

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

✶

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تليفون : الادارة ٢٣٨١٩ — المنزل ٢٥١٣٩

Tél. Direc : 23819 — Dle. : 25139

✶

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير اديب**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

وصفارهن . وكان اكثر شباب (نيو انكلند) سحرا وأسرعهم حركة واشهرهم خفة ورشاقة ، ترى ذلك في سترتـــه الزرقاء الباريسية الصنع ، وصديره الجميل ، وسراويلـه النظيفة . وهذا ما جعله متنقلا بين زهرة واخرى كأنـه فراشة تمتص الرحيق من هنا وهنا . واخيرا انتقى واحدة منهن لقلبه ولبيته . مضت سبع عشرة سنة على مجيئه الى (كريجي هاوس) وبعد هذه المدة تزوج ثانية .

والسيدة لونكفيلو الثانية هذه ، هي بنت تاجر مـن بوسطن ، كان قد لقيها في سويسرا بعد وفاة زوجته الاولى بامد قصير ، وهي شابة « نادرة الذكاء ، عيناها عميقتـــا الغور ، لا يسع اللسان التعبير عنهما » . وقد قدم والـد السيدة الصغيرة حجة بيت (كريجي هاوس) هدية منـه اليهما بمناسبة قرانها ، والآن بدأت الشهرة تطير باتجاه (كريجي هاوس) باجنحة يسمع لها حفيف لطيف . ذلك بان لونكفيلو نشر ديوانا من الشعر فيه صدى روح غوته ، وانسجام الاغاني الاسكندنافية . وفي احدى احلام يقظته سمع نبرة لقصيدة غنائية (بلدية) وشاهد جمال شجرة (الكستناء) في بيت الحداد . ثم ما انفك ان نظر الـى الجماهير الكادحة ، فشعر برغبتهم الملحة في الوصول الى اهداف تعلو بعضها بعضا ـ وكل ذلك في سيرهم للكمال . وهذا ما جعله يجد في كل واجب يومي موعظة لفلسفـة شاملة في حقل الايمان .

وهذه لم تكن فلسفة « ابن سعيد من ابناء الحظوة » لم يفكر في شيء ، ولم يتألم من امر . فلونكفيلو تجرع كأس الحزن حتى الثمالة . والواقع ، انه ادرك حكمته من خلال شقائه . وبواسطة شعره ، تلهف لاشراك سائر العالم بحكمته . كان تدريسه في الجامعة ثانويا ـ ومنهكا . فقال بهذا الشأن شاكيا ان عمل الكلية يشبه يدا ثقيلة وضعت على اوتار قيثارتي » . لان رتابة هذا الشغل غير المنتهي ، هددت بالقضاء على طلاوة اغانيه .

وفي الختام اعلن عن استقالته عن وظيفته . ارتدى جبته الجامعية الفضفاضة للمرة الاخيرة في حفلة افتتاحية، وكان الجمهور الحاشد في الكنيسة يبدو كأنه اشباح غير حقيقيةلاصلةلهبها. ثمراقبالاستعراض المتباهي، الذييضم التلامذة في ارديتهم التقليدية ، وفي عاداتهم الرجعية ، فشعر بقناعة اكثر بوجوب تحطيم اسوار دراسته الاكاديمية واستنشاق هواء (نيو انكلند) الطلق ، والاستمتاع ببلسم الغابات . اغلق قبور الماضي الميت ، وافتح ابواب الحاضر الحي . وهذا ما اعاد اليه كلمات قصيدته « حسِّن حاضرك بحكمة ، فهو لك » .

وهذا حق لا مراء فيه ، فالحاضر كان حيا ، نابضا ، ملتهبا بالطاقة المؤملة ، هنا في بلده نفسه ـ في كل مدينة امريكية ، وقصبة ، وقرية ، وبيت . اذ ليس لك ان تبحث عن الهامك في بلاد اخرى ، وتحت سماوات اخرى . وقد اشار هنري ثورو الى ذلك بقوله « سافرت كثيرا في مجالي الانسجام » ذلك بان الفيلسوف الشامل الادراك ، والروح العالمية ، لم يعمل شيئا غير حرث جزء يسير من وطنه . لان الوطن هو المكان الذي يجنى فيه الانسان ثمار اتعابه . فأميركا بالنسبة الى الرائد القاطن فيها ، بركة من الله ، في حياته الحالية . ويا لشنار الفلاحين الذين يهملون تربتهم . « نحن لا نريد بلابل من شعرائنا الذين في قدرتهم رؤية طير الحجل في كل مكان ، ولا نريد قصائد اكثر عن قلاع الراين ، بينا دخان الكوخ الهندي يمتزج باشجار الصنوبر فيما هي فيه من ضباب » .

ومن الطبيعي بالنسبة الى لونكفيلو ان تنشأ حكايات امريكية من تراثها الشعبي ، كما تشاهد ملاجيء مـن اخشاب صنوبرها . فليس من تقاليد المانية عن (الغابـة السوداء) يمكن ان تتجاوز اساطير (كاتسكل) وليس مـن مدينة اوربية اكثر مهابة واشد روعة من بوسطن ذات الآباء البيوريتان ، وليس من ملحمة عن القبائل الاسكوجية تعدل في فظاظتها طرد الاكاديميين من (نوفا سكوشيا) .

فما لك لا تغني الانغام الامريكية التي انبثقت مـن سكانها الهنود الحمر ، وما لك لا تنشد ما انشده الباز الاسود واصدقاؤه ، وهم يرتدون اغطيتهم الحمر، باكتافهم المدهونة بالصبغ القرمزي ؟ لم لا تحلم في غرفة الدرس التابعة لدار (كريجي) وتعطي شكلا للرياح وظلال الاوراق ؟ وقبل كل شيء انشد موسيقى الاصوات كأنك سنديانة عظيمـة ، اجتثت من الغابة . واترك رداء الماضي الاوروبي المندثر ، وارفع علم الحاضر الامريكي الحي عاليا في السماء ، ليرفرف حيث يشاء .

وهكذا ، بينا سار في خلال الاشجار في شـارع (براتل) رمى بقفازيه البيضاوين ، رماها لتدرك انسجام (هياواثا) . وبقلبه المندغم في العاصفة التي اثارها جاموس البوزون في السهول ، صوب سهام اغانيه الـى الهواء ، فسقطت على الارض ، ولكن لا يدري اين . لقـد اجتاز « مقبرة جامعة هارفرد » بكتبها المغبرة التي تتحدث عـن العالم القديم ، ثم تخطاها الى عالم الرجال ـ الى شمس الشهرة ذلك بان قصصه عن العالم الجديـد ـ اضراب (ايفا جيلين ، وهياواثا ، ومودة ملز ستاندش) ـ اصبحت جميعا كنوزا في كل بيت ينطق فيه باللغة الانجليزيـة . وبالاتفاق العام توج شاعرا للشعب . فقال بهذا الشأن : « اني لا ارضيكم بعمق فكرتي ولا بجدتها ... وليست لي رغبة في حل معضلات الوجود ... ولن اربحكم بالتعبير عن تجربة غريبة ... وانما انا افضل المشاعر البسيطة ؛ واعطي ما عندي من نصح للانفعالات الطبيعية التي تساور الرجال ذوي النيات الطيبة في كل مكان » .

ومع هذا فقد كان لونكفيلو استاذا وشاعرا في الوقت نفسه . فبينا نبذ جثة الماضي الميت ، احتفظ بروحهـا الحي . اخذ خمر العالم القديم الفني ، وسكبها على موائد العالم الجديد . فامتلأ الجو بالسحر » كلما سرد القصص الجديدة ابدا ، الحية دائما ـ قصص الايام الماضية . جلس في فندق خيالـه ، ورقب موكب الزوار الخالديـن ـ الموسيقيين ، والشعراء ، وعلماء التلمود ، والتجار ، والطلاب والقسس . وكلما نظر من الشباك على السنديانة القديمة المحترمة ، سنديانة بيت آلهته ، تبسم وانطلقت من فيـه كلمة لطيفة عن كل المسافرين المتعبين ذوي العزائم المتخذلة ـ من امثال الفلاحين ، والرقاعين ، والسواق والباعـة المتجولين ، والجنود الذين يسيرون الى ساحة الحرب ، في الحرب الاهلية .

كان شاعر الوطن ، واللطف ، والسلام . ومن حين الى حين تجمع الضباب ، والثلج ، والحزن في قلبه . فقد

وجه الموت سلسلة من السهام الى بيته . وكلما استلب احدا من اسرته ، عادت الحياة لتملأ خزانته ، وهذا ما جعله يقول : « مر ملاكان بقريتنا ، ملاك ينذر بالموت ، وآخر يبشر بالحياة » . ولما دلف ابوه وامه الى الظلام ، جاءت الس ، وادت ، واليجيرا ، وهن ضاحكات يتطلعن الى وجه الفجر .

وفي ذات يوم من ايام الصيف رجحت كفة ميزان العدل ضده . كان ذلك في سنة (١٨٦١) وكان الشاعر ينظر الى اشعة الشمس ، مقدما شكره الى الخالق . وبينا كانت السيدة لونكفيلو تمشط شعر اطفالها ، اشتعلت النيران في ثيابها ، وفي لحظة اصبحت شعلة ، ففرت من القاعة لانقاذ اطفالها . وحالما سمع زوجها صراخها وانينها ، اندفع من غرفته ، فاحتضنها بين ذراعيه ، بعد اطفاء النار ، حملها الى سريرها ، بعد ان تجرعت آلاما شديدة . وفي اليوم التالي توفيت . تمشى الشاعر من غرفة الى غرفة وهو يضرب اخماسا باسداس . فكاد ان يجن من الحزن . ذلك بأن كأسه الطافحة بسمعته الحميدة اثارت حسد الالهة . وقد تحسر قائلا من حين الى حين « كنت سعيدا ، كل السعادة . »

وضعت (زوجته) ، في نعشها وجانب وجهها غير المحروق ، مرفوع الى اعلى . هذا الوجه ، الذي بدا طريا جميلا ، بشوشا في راحته . وهذا ما حدا بالشاعر الا ينسى تلك الومضة ابدا . ولم ينس قط هذه المأساة ، كلما سار على درب السنين ، « في آناء الليالي الطوال المفعمة بالسهر والارق . » وهذا ما حمله على القول :

« في الغرب القصي جبل ، يتحدى الشمس بوديانه العميقة وعلى جانبه صليب من الثلج ، هذا الصليب الذي احمله على صدري في هذه الاعوام الثمانية عشر ، مع كل ما حل بساحاته من مناظر متغيرة ، وفصول متباينة . فانا لم اتبدل من يوم وفاتها » .

وكلما انحدرت السنون الى الابدية ، كانها ثلوج ذائبة، ظل حزننا في دخيلة نفسه ، ولو انه بدا لطيفا ، هادئا ، في مظهره الخارجي . وقد كان يأمل الا يفقده سير الزمن قوة الفناء ، والا يؤذي ذهنه .

وفي هذا لم يخب ظنه . ذلك بان ازهار خياله احتفظت باريجها ، في غضون خريف حياته . وبعد وفاة زوجته الثانية ، اخذ على عاتقه ترجمة « الكوميديا الإلهية » لدانتي الى الشعر الانجليزي ، عملا منه بتوفية حق الحب. لانه ، كدانتي ، شاهد رؤيا (بياتريسه) في السماء . وقد ترجم هذه الملحمة بمعدل مقطوعة كل يوم . وفي بداية واجبه اليومي ، كان يدخل في معبد القلب الايطالي العظيم ، وهناك يحني رأسه ويصلي صلاة مهيبة .

وفي ذات مرة ، زار اوربا زيارته الاخيرة ، فقوبل بحفاوة لم يقابل بها امريكي من قبل . ومن ذلك ان احد العمال اوقفه في قارعة الطريق فانشده قصيدته (مزمور الحياة) . ولما استدعي الى بلاط الملكة فكتوريا ، اختفى الخدم وراء الاستار ليقتنصوا نظرة من هذا الرجل المحترم، ذي الوجه المحاط بالشعر الفضي ، واللحية البيضاء « ذلك الوجه الذي يتلألأ بحمرته » انهم ينظرون اليه بتلهف ، « لان اشعاره » التي يحفظونها عن ظهر القلب ، « تبعث الامل » وتحيي النفوس الموات .

ولما عاد ادراجه الى كيمبردج هتف له (المستقبلون) وعدوه المواطن الاول في مدينتهم . ثم رجع الى دراسته ، ليتمتع بآثار الماضي ، ومن تلك الاثار محبرته ، وكانت هذه في الاصل تعود الى كوليردج ، وكذلك السلة التي كان يرمي (مور) فيها مسودات اشعاره ، بالاضافة الى قطع متناثرة من نعش دانتي .

وطالما كان ينظر الى صور الماضي المتلاشية سراعا . فيتذكر هاوثورن ، وسمز ، وامرسون . هؤلاء الادباء الحالمون مثله ، وهم في صورهم المعلقة على الجدران ، يلاقون نظرته بصمت متسائل وقور ، كأنهم يقولون « الى ماذا سننتهي جميعا ؟ » فيفرك راحته بالكرسي الذي صنع من خشب الكستنا في شارع (براتل) وقد اهداه اياه اطفال (كيمبردج) لما قرر كبار المدينة اجتثاث الشجرة ، التي كانت تنتصب واقفة ، على مقربة من دار الحداد . ولا شك في ان خشبها تراث قديم ايضا . ماتت هذه الشجرة ولكنها بعثت الى الحياة في شكل آخر ، ومن اجل فائدة اخرى . لقد جاءت الحياة ، بواسطة جهود اطفال المدرسة ، مواطني الاعوام المقبلة . فكانت رمزا للمستقبل ، انقضى من قلب الماضي ، كما كان حال الشاعر المسن .

* * *

وفي مناسبة العام الخمسين من دخوله الى (باودون كوليج) جاء الى الكلية يحف به زملاؤه القدامى . فقرأ لهم قصيدة بصوت خفيض محمل بثقل الاعوام ، من غير ان يفارقه شباب الامل . ثم تحدى الردى قائلا « نحن الذين نوشك ان نقارب النهاية ــ نسلم عليك ــ ايها الموت غير وجلين ولا هيابين » . تجمهر الطلاب القدامى في غرف التدريس ، وبعدئذ تفرقوا في الساحات . فتكلموا برهة ، وصلوا آنا . ثم ودعوا بعضهم بعضا . لانهم عرفوا ان صيف ١٨٢٥ لن يعود ابدا . فالعمر اخذ مأخذه ، وانهى جولته .

اما الشيخوخة بالنسبة الى الشاعر ، غير فرصة ، لا تفرق في شيء عن فرصة الشباب . وكيف لا يكون الامر كذلك ، والنجوم تسطع في الليل ــ وتخبو في النهار ؟ فينبغي العمل على تحسين هيكل الروح الانسانية ، وبيتها الجميل . وعلى الاغاني ان تنتشر وتذاع قبل انسدال ظلال المساء . ولم لا ، وهو لم يزل ابن الخامسة والسبعين ــ وهو لم يعش غير لحظة في نهار الابدية . ان احفاده يلعبون في الخارج ، والطيور تعزف الموسيقى في الحقول المجاورة. فلا بد من وجود اطفال دائما ، ولا بد من غناء الطيور في الحقول .

دقت الساعة الواحدة في القرية ، فرفع الشاعر نفسه من رقاده ، ثم نظر بصمت الى التماثيل المرمرية الموضوعة حول الغرفة . فبدت عين (غوته) العجوز ترف ، حتى كان ما يشبه الصوت انطلق من شفتيه : « ايها الخلود العظيم ، خذني اليك » نهض الشاعر على قدميه ، ثم اطفأ القناديل ، وبعدها ذهب الى فراشه لينام .

العراق ــ بعقوبة **يوسف عبد المسيح ثروة**

الى اصدقائي

لـرزوق فـرج رزوق

بغداد

يا اخوتي
بين الصخور الصمّ تورق نبتتي
خضراء ، ناضرة ، كأنّا أمس لم تتشتتِ
لم يرتعش قلبي ، ولم أرحل ، ولم أتلفت
يا اخوتي
مـا كان أشجى كل يـوم ميتِ
لو لم تبح لي نبتتي
بكلامها العطريّ ، أو لم أنصتِ
لو لـم يضوّء ليلتي
أمـلٌ ، كعيّني حلوتي
كودادكـم .. يا اخوتي

عاج الشمس

أنت لهيـب في حياتـي ونار ... وفي شراييـنـي دم مستـثـار
لا تغربي يا مهرجان الضحى ... لا تذهبي يا زغردات النهار
طفولتي لا تمسحي حلمهـا ... لا تمسحي عنّها هنـاء افترار
ترى درى الوداع جرحـا نزا ... في خاطري،وفي ضلوعي انكسار
وكان في أمسي نشيـد المنى ... يهزج في سمعي بعيـد القرار
آن على زندي صباح غفـا ... يضمني ، فالليل ولى وطـار
وآن عـاج الشمس لونته ... من قبلي وردا وزهـرا ونار
آن انتثار الفل فوقي رؤى ... ومن شذيّ الياسمـين انهمار
يا فمهـا يا نبع طيب ويـا ... خضـرة عينيها كرحب البحار
أرشف منه العطـر في نشوة ... وانثني أبحـر خلف الـدرار
وفي دمي جمر وفي خـافقي ... أغـرودة ، وفي عيوني شرار
وكل رف من شـذاها غوى ... وكل ضلع من ضـلوعي كنار
يا ساعـدا زنرتها شاديـا ... تخشى على الخصر أذى وانهيار
ما بالـك الان بتلويحـة الـو ... داع ممـرورا .. كئيب الحوار

دمشـق — نـذير عظمـة

قصـة تونسيـة

شبح من الماضي

بقلم السيدة ناجيـة تامـر

خرجـا من المنزل في الليل ، وهما يدبان دبيبا ، وقـد اثقلت الشيخوخة خطواتهما ، وبدلت نشاطهمـا باتئاد وسرعتهما باقتصاد ! ... ولما وصلا الى المنـزل ، صافحته رفيقته العجوز امام باب دارها وتنهدت وهـي تتمنى له رقادا هانئا ... فسألها عن سبب تنهدها واظهر عجبه من صمتها طيلة الطريق ، وهي التي عودته الثرثرة والكلام بدون توقف ، ولكنها ثرثرة فيها خفة وجاذبية ، لا تضيق الصدر ولا تثقل على الاذن ، ولهذا لا يريدها كل من يعرفها الا متحدثة منطلقة لا تتوقف الا لحظات قليلة لتعود الى حديث اخر كله حلاوة وانطلاق ! ..

فزفرت زفرة حارة ، ثم مدت يدها الى صدرها ، واخرجت حزمة من الرسائل مربوطة بشريط حريري ازرق، تفوح منها رائحة عطرية فضح سرها نسيم الليل وحساسية انفه العجيبة ... وقالت :

انظر يا صديقي الى ما بقي من آثار زوجي المرحوم ، وبليت عظامه الان ، وها هي ذي كلماته لا تزال مسطرة على الورق ، وكأنها كتبت منذ عهد قريب .

فاخذ منها حزمة الرسائل ، واخذ يقلبها بين يديه متأملا مفكرا ، ثم ادناها من انفه ليتأكد من رائحتها ، وسألها بصوت يمازجه الاضطراب :

اهذه رسائل زوجك ؟ . اكنت تحملينها دائما في صدرك ؟ ليرحمه الله ! ...

فاجابت : لا ! لم تكن هذه الرسائل عندي ... انت تعرف اني صديقة زوجتك منذ الصغر ، فكان المرحوم يرسل لي رسائله ، فاقرؤها واودعها عندها لخوفي مـن غضب ابي الذي لم يكن ليرضى ان نتراسل رغم انا كنـا خطيبين ... وبعد زواجي ، بقيت رسائلي لديها ، فـلم اعد اهتم بها وانا في قمة السعادة ، وزوجي الذي كنت اعبده معي احادثه ويحادثني واسامره ويسامرني ، فلـم تعد للكلمات المسطرة الجامدة اية اهمية ازاء الكلمات القوية الحية ... وبعد وفاة زوجي ، طلبت من صديقتي ان تبقي تلك الرسائل عندها ، اذ لم تكن لدي القـوة الكافيـة لمطالعتها ... لان كل حرف من حروفها ، وكل كلمة مـن كلماتها ستذكرني بلا ريب بالموت الفظيع الذي قصف حياته قصفا وهو لا يزال في ريعان شبابه ! ..

والان بعد مضي سنين طويلة عـلى ذلك الحادث ، فكرت في تلك الرسائل ، وطلبت من زوجتك ان تسلمني اياها ، فأعطتها لي هذه الليلة ، وبي شوق غريب لتصفحها ومطالعتها ، ولهذا وجدتني صامتة طيلة الطريق ... كنت افكر في حياتنا الماضية ، وكنت اتصور كيف اني سأستعيد الماضي من خلال سطورها .

وضحكت ضحكة خافتة فيها أسى وتفجع واردفت : لقد حاولت المستحيل لانقاذ حياته ، وكنت خيـر طبيب أشرف عليه ، لما كان يربطكما من صداقة ومودة ، ولـكن الاعمار بيد الله ! ... آه ! . البرد بدأ يرطب اواخـر ليالي الصيف ، وقد مكثنا مدة ونحن نتحادث ... لقـد اصبحنا شيوخا ، واقل برد يؤثر في جلودنا الباليـة يا صديقي ...

وضحكت وكأنها تحاول ان ترفه عن نفسها ضحكـة فيها بعض الشجاعة والقوة .. كمن يحاول تخفيف الالم بمس موضع الالم ...

لتصبح على خير يا صديقي ، ارى ان الحديث عـن زوجي المرحوم قد اثرك ، لا بأس !. وبعد ، افلسنا كلنا عن هذا العالم راحلين يوما ؟ ..

فاجاب : هذا صحيح ! كلنا عن هذا العالم راحلون ، وفي هذا تعزية كبرى لنا ... لتصبحي على خير ، وارجو ان تنعمي برقاد طيب الليلة ...

ـ الليلة ؟ ما من شك اني سامضي ليلتي ساهـرة ، ساطالع كل هذه الرسائل ، اعطنيها من فضلك ، كـدت انساها عندك !

ـ تفضلي ! تصبحين على خير ! .

ـ وانت من اهل الخير !

ودخلت العجوز لمنزلها ، وآب الطبيب لداره ، وقـد تثاقلت خطواته اكثر من قبل ، وظهر مرور السنين واضحا في تجاعيد وجهه ... وعند رجوعه وجد زوجته تنتظـر اوبته ، فقال لها :

اجلسي يا عزيزتي ، اريد ان احدثك قليلا ! ..

فنظرت اليه متعجبة واجابت : ما بك يا عزيزي ؟ لقد اظهرت ميلك للنوم منذ قليل ، وكنت تود الذهاب لفراشك لولا اضطرارك للانتظار للاصطحاب صديقتنا ، وهـي ليست غبية ، فقد استاذنت حالا في انهاء السهرة .. هل جد امر ؟ ..

ـ لا ! لا ! لقد حدثتني حين وصولنا امام باب منزلها عن رسائل اودعتها عندك ، وهي تحارير استلمتها مـن زوجها حين كانا خطيبين ، ولم تفكـر في استردادها الا الان ! ...

ـ اجل ! كان ابوها كثير التعصب ، لا يرضى عـن مراسلة ابنة لخطيبها ، ولهذا كانت تودع هذه الرسائل عندي لانه كان يشق عليها ان تمزقها بعد قراءتها . وبعد زواجها لم تطلبها مني لانشغالها بسعادتها ...

مسكينة ! لم تدم سعادتها سوى عامين اثنين ، انقلبت به السيارة بعدهما فتوفي على اثر الجراح التي اصابتـه وقضى مأسوفا عليه ... ولم تشأ حينـئذاك استـرداد الرسائل ، لانها كانت في حال لا تساعدها على تصفحهـا واستعادة ذكرياتها الماضية ...

ـ ولم لم تنبئني عن وجود هذه الرسائل لديك ؟

ـ ان امرها يا عزيزي لا يعنيك ولا يعنيني ، هل اذا امنك احد اصدقائك على سر ، يحق لك ، ان تطلعني عليه الا لظروف خاصة ؟ ...

ـ هذا صحيح ! . ولكن ! ..

ـ ولكن ماذا ؟ اني لا ازال اذكر انك قـد فعلت المستحيل لانقاذه ، ولكن جهودك ذهبت عبثا ! ..

ـ لقد فقد نصيبا كبيرا من الدماء !..

ـ اتريد الان شيئا اخر ؟ سأرتب لك فراشك ...

ـ حسنا ! ... واطرق الطبيب برأسه ، واخذ يفكر :

خيال الظل

بقلم مكرم سمعان
استاذ التربية بالعلمين الريفية بمنشاة القناطر بمصر

يقال ان خيال الظل(1) Shadow Theatre لم ينشأ نشأة مصرية صميمة ، انما دخل اليها من احدى دول الشرق الاقصى في القرن الثالث عشر ، ولو ان الباحثين عجزوا – حتى الآن – عن تحديد الامة التي اخترعته لاول مرة . وقد ازدهر خيال الظل في مصر اكثر من اية بلدة شرقية اخرى .

كما يقال ان السبب في تأخر الشرق في اختراع المسرح والدراما او تبنيهما يرجع الى اسباب ثقافية اهمها :

اولا – الاعتقاد بالجبرية وتسليم الشرقي مجرى حياته لقوة القدر العليا .

فاذا كان المسرح والدراما يعتمدان على الحركة السريعة والتطور الحي السريع من موقف الى موقف آخر وهما طبيعة التوتر الذي يحسه الانسان في الصراع بينه وبين القوى العليا كما بدا في احسن مثال له في الدراما اليونانية ... اذا كان امر المسرح هو كذلك فان ثقافة الشرق لم تعترف ابدا بوجود هذا التوتر ولم تحس به لانها اسلمت قيادها لمن هو اعلى منها واستراحت الى ذلك فانتفى منها معنى الصراع وبالتالي الحركة والتغير السريع . وكان اصدق تعبير للتسليم الشرقي في الاقوال والامثال الشائعة . فليس ثمة معنى للتوتر في حياة الشرق ، وما دام الصبر مفتاح الفرج فعلام يظهر الصراع اذن ! !

ومن اهم ما ادى الى انتشار خيال الظل ثم الاراجوز فيما بعد وتبني الثقافة العربية لهما انهما مثال نموذجي يعبر عن الفلسفة القدرية والتسليم الكامل في غير اعتراض :

– ان هذه الاخيلة للشخوص او الدمى الصغيرة كلها لا تمثل الا الدور الذي يرسمه لها ويريده لها ذلك العقل الذي يملك ناصية حركتها في يده غير الظاهر للنظارة فتكون مثالاً نموذجيا لقدرة الله وعنايته في تدبير الانسان في كل تفاصيل حياته دون ان يراها البشر ، لان الفرد في ثقافتنا يمثل الدور الذي ارادته له قوة القدر العليا غير المرئية .

– ان طريقة عمل « خيال الظل » في مسرحه تتكامل على نفس هذه الاسس الثقافية المتغلغلة في شرقنا ، حيث ان مسرحية خيال الظل تقوم على السرد القصصي مع تحريك الشخوص لتعبر عن السرد . ويتمثل هذا الاتجاه في الفنون الشرقية المختلفة التي تعتمد على السرد والتكرار فالموسيقى الشرقية عبارة عن ايقاع او جملة ايقاعات موسيقية مكررة تكرارا بطيئا وقصص الشاعر الشعبي المتجول كذلك والفن الاسلامي عامة يعتمد على تكرار الوحدة الزخرفية او الكلمة المنقوشة المتكررة ، ولذلك لم نر في الفن الاسلامي صورا للانسان او تماثيل له فضلا عن التعبير عن صراعه مع القوى العليا .

– لذلك كله انتفى الجدل من مسرح خيال الظل ولم يظهر اثر المناقشة التي تقتضيها دينامية الموقف الدرامي ، ففضلا عن كونه قائم على السرد فانه ايضا سرد من شخص آخر هو الذي صمم الدراما الانسانية وعلى الافراد تمثيل ادوارهم كما صممها لهم ، فهو اذن سرد مصمم من قبل ، كما ان سلوكنا ومصيرنا مقدر ومعروف بالعلم السابق وحياتنا كلها في اللوح المحفوظ .

وشيوع القول : اللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين ... سلم امورك يا قلبي وامتثل لله ... في اغانينا يؤكد ذلك .

وكان اصدق تعبير يؤيد نتيجة دراستنا ما قاله احد

(1) ارجع الى اعداد الاديب مارس وابريل ومايو سنة ١٩٥٣ .

لقد وجد يوما تلك الحزمة والرسائل في درج زوجته، وتلاها بمفرده ، وتيقن من خيانتها له مع اصدق اصدقائه ... واحس بنفسه انه من أشقى خلق الله ، واخذ يفكر في طريقة للانتقام بدون اثارة اية ضجة ، حين انقلبت السيارة بصديقه وحمل الى منزله ليلا ... وكان عليه ان يوقف نزيف الدماء حالا لانقاذ حياته ، ولكنه تباطأ عمدا ، فلما اجرى له العملية كان قد فقد الكثيرمن دمائه ، فقضى اثر نزيف قوي ، كما شهد له بذلك الاطباء ! .. كان يعلم لو انه اسرع باجراء العملية لضمن له الشفاء ، ولكنه تعمد التقاعس والابطاء ! ...

وانتفض على صوت زوجته الهادىء وهي تقول له : الا تريد ان تذهب لفراشك ؟ ولم يشعر بنفسه الا وهو يصرخ في وجهها : يا للسماء ! . لم لم تخبريني عن وجود تلك الرسائل آنذاك ؟ . انك لمهملة ، انك اذن تخفين عني اشياء كثيرة ! ..

– انا اخفي عنك اشياء كثيرة ؟ هذا ذنب تحاسبني عليه بعد مضي هذه السنوات الطويلة ؟

– كان عليك ان تنبئيني عن وجودها ، ولا تخفي علي شيئا ...

– لقد اوصتني ان اخفي امرها عن كل انسان ! ..

– ولم كتمت امرها بعد زواجهما ؟

– كنت انتظر ان تستردها يوما ، ولكن اهو ذنب اؤاخذ عليه الان ؟ ! وهل كان علمك بوجودها سيقدم من ساعة موته او يؤخرها ؟ ..

ولكن هو .. لِم لم يصرخ في وجه زوجته آنذاك متهما اياها بالخيانة والعار ، لو فعل ذلك لعرف كل شيء .. لقد آثر ان يصمت وان ينتقم بهدوء ... واستأنف الحديث قائلا : – وهل كان يحبها كثيرا ؟ ..

– لاقصى حد ، وكانت هي تعبده ... والدليل على ذلك انها لم تتزوج بعده رغم وجود الكثيرين الذين اقدموا على طلب يدها ...

– لتصبحي على خير .. سأذهب لفراشي لانام ! ..

– ابك ما يزعجك ؟ احس انك لست على ما يرام .. اتريد ان اعد لك شيئا ؟

– لا ! . انا بخير ، لتصبحي على خير ...

– لتصبح على خير ! ...

تونس **ناجية تامر**

شعراء العربية عن خيال الظل في مصر :

رأيت «خيال الظل» اعظم عبرة ... لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصا واصواتا يخالف بعضها ... لبعض واشكالا بغير وفاق
تجيء وتمضي بابة بعد بابة ... وتفنى جميعا والمحرك باق

ولم يظهر نظام الجدل في الدراما الشرقية الا متأخرا مع الاراجوز التركي لاننا كنا قد بدانا نتأثر الثقافة الغربية التي قامت على ادراك الصراع الدينامي بين الانسان والقدر على مسرح الزمن كما يمثلها اصدق تمثيل « جوته » الالماني في مؤلفاته .

ثانيا — ثم ان ثقافتنا تحرم تمثيل الاشخاص واخذ صورهم وعرضها ... فكل منا خلق لدوره فقط — وليس بخاف علينا معركة تصوير وتمثيل شخصيات الرسول والخلفاء — لذلك كان في « خيال الظل » وما يتميز به من طمس معالم الشخصية لظهور خيالهم فقط — والخيال حقيقة يعترف بها الجميع — كان في ذلك متنفس لهم ، فاندفع الشرقيون عامة والمصريون على وجه الخصوص في الاخذ بهذا الفن وكان ازدهاره فيها عظيما .

ثالثا — وفي القرون المليئة بالظلم والاستبداد، وخاصة في عصور المماليك والاتراك، كان « خيال الظل » هو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التوترات الداخلية — في غير اخلال بأسس الثقافة الشرقية — المكبوتة في النفوس ضد هذا الظلم الجائر ... فكانت قصصه هي مادة التندر بالرؤساء والسخرية من الحكام في خيالات شخوصهم دون تحديد دقيق لمعالم الشخصية المقصودة حتى لا يقعوا تحت طائلة العقاب .

ولذلك ظهرت القصص التي كانت تؤلف خصيصا « لخيال الظل » يجد فيها الشعب تعبيرا عن صبرهم المكبوت وحريتهم المكبلة .

اما من ناحية تاريخ الدراما والمسرح العربي في الشرق عامة ومصر خاصة فان « خيال الظل » Shadow Theatre هو المرحلة السابقة على « الاراجوز » Puppet لان الاراجوز كان الخطوة المتوسطة التي شجعتنا على الاقبال على المسرح الالماني القائم على الجدل . ولو ان الاراجوز كان ولا يزال وسيلة ساخرة للهروب من تمثيل الشخصيات الانسانية للاسباب التي سبق وذكرناها .

وكذلك لم تتبن ثقافتنا المسرح الاوروبي الا في العصر الحديث — ولو انه لا زال يتعثر — ثم تلته السينما في القرن العشرين بسبب تأثرنا الثقافة الغربية ، ثقافة القلق والتوتر والحركة والصراع .

والحق ان «خيال الظل» Shadow Theatre يعد الارهاص الاول لفكرة السينما او العرض التمثيلي بالصور ، وقد يكون هذا هو سبب تسميتها بالعربية « الخيالة » .

وهكذا ظل « خيال الظل » مزدهرا في مصر حتى اواخر القرن التاسع عشر حين طغت عليه الملاهي المسرحية والسينما واختفى نهائيا من مصر كوسيلة للتسلية والترفيه عن الشعب ، ولو انه استمر حتى نهاية الثلث الاول من القرن العشرين كوسيلة لتسلية الاطفال حتى مستوى المرحلة الابتدائية .

وقد كنا نستعمل « خيال الظل » « في طفولتنا » في صالة منزلنا حوالي سنوات ١٩٣٤ — ١٩٣٧ للاطفال دوننا ومن في سننا واكبر ممن لم يتهيأ لهم الذهاب الى السينما التي لم تكن قد انتشرت ، فكان مادة ثمينة تجذب اطفال الاسرة فضلا عن اطفال الجيران وكنا نعرض لهم ونسرد لهم خلاصة ما شاهدنا في الخيالة ، مما دعانا اليوم الى التفاؤل من فائدة استخدامه سواء في القرية او المدينة مع طفل المرحلة الابتدائية على وجه خاص . الى هنا ولا اعتراض .

اما الجديد في الامر فهو مدى امكان استخدام مشروع « خيال الظل » في المدرسة الابتدائية على وجه الخصوص — كوسيلة معينة على التدريس ؟ ! المشروع الذي اذا تحقق لكان الاول من نوعه في مصر والشرق بل في العالم كله .

وبدات في تنفيذ التصميم الذي وضعته لهذا المشروع البسيط التكوين الجليل الفائدة . وقد تحقق المسرح امامي . ولكن كيف اقدم فكرتي بلا تطبيق عملي لها ؟ وعكفت افكر فاخذت موضوعين من المواد الاجتماعية وحولتهما الى نوع من الرواية القصصية Dramatization حتى يمكن تمثيلها على مسرح خيال الظل: الاول عن «نارمر» (مينا) موحد القطرين ، والاخر وهو من وحي الاحداث المصرية في السنوات الاخيرة ، ذلك هو قصة الفرعون « احمس» بطل الجلاء وحامي الاستقلال . وكلا الموضوعين من موضوعات المواد الاجتماعية في المرحلة الابتدائية وحاولت في تنفيذ هذا الموضوع ان اقيمه على اساس البدء من الخبرة الحاضرة المباشرة التي يعيشها الاطفال الى الخبرة البعيدة فربطت الاحداث التاريخية مع بعضها حتى ارجعها الى اصولها الثقافية . وقد وفقت الى الاستفادة من بعض الفنون الاخرى كاصوات المجموعات في الاناشيد الوطنية والقومية التي تخللت عرض القصة ، كما استفدنا من الرسم والاشغال في تكوين الشخوص القصصية .

ثم ظهرت امامي المشكلة الثانية فقد يقال ان المواد الاجتماعية سهلة التمثيل على المسرح ، فما العمل في سائر المواد الاخرى ؟ ولم ارتض ان تكون تجربتي ناقصة او اجابتي بتبرير نظري ، انما وضعت المشكلة امامي وجلست ابحث عن حل لها . وكان معي الزميل فؤاد قلادة مدرس العلوم فعرضت امامه المشكلة ، فما لبث ان اجاب بنفس الحماس وعكفنا معا على منهج المدرسة الابتدائية واخرجنا درسا في العلوم « عن احد الطيور الصديقة وهو ابو قردان » وحاولنا ان نقتبس له بعض ما يمكن الاستفادة منه في ركن الاطفال .

وليس ثمة مجال لان اشير الى النجاح والترحيب الذي قوبل به هذا المشروع في تجربته الاولى امام بعض اساتذة الجامعة والموجهين بقسم الوسائل السمعية والبصرية بمركز الدراسات التجديدية بمصر وكثير من المفتشين ومن اساتذة معاهد اعداد المعلمين .

وفي حفل للسمر اخرجت عليه ايضا تمثيلية « الطويل والقصير » وهي ملهاة قصيرة من تاليفي قوبلت بتقدير الجميع .

وبذلك اثبت مشروع « خيال الظل » نجاحه في ميدانين :

— من حيث هو وسيلة معينة على التدريس في مناهج العلوم المتنوعة .

ثم كوسيلة للتسلية والترفيه في الحفلات المدرسية .

واجمل ما يتميز به ادخال مشروع « خيال الظل » الى المدرسة الابتدائية على نحو ما شرحنا انه يقوم على

سمراميس واسطورة الدم

بقلم كاظم الجنابي

بكالوريوس آثار

هـذه اولا اسطورة الملكة الاشورية سمراميس التي يعرفها قدماء العراقيين باسم (سمي رمات) كثيرا ما ترد اخبارها في التاريخ الاشوري عرضا بشكل اسطورة اقرب الى الحقيقة . و (سمى) تعني محبوبه و (رمات) حمام ، فيكون اسمها (محبوبة الحمام) (١) . وقصة حياتها فريدة اقرب الى الخرافة . تزوج ابوها سرا من معبودة سماوية او جنية لطيفة مقدسة صارت حديث الناس في البلد فحاولت عبثا ان تستر العار الذي لحقها لانها تزوجته سرا . والزنى يعاقب عليه بالموت كما تنص شرعة القوانين القديمة . فقررت الذهاب الى الصحراء حينما دنت الى وضع ابنتها سمراميس

... فتركتها هنا بعد ولادة مؤلمة . وكان من حسن حظ الطفلة ان تلتف حولها الطيور من كل صنف ونوع ، فقامت بتغذيتها طوال عام واحد ثم عثر عليها الرعاة بطريق الصدفة فشبت بين احضانهم لطيفة فارعة الجمال . وقد شاهدها احد الضباط الاشوريين العظام (مينونيس) الذي كان حاكما في سورية فشغف بها حبا وتزوجها . وكان هذا الضابط يصطحبها في كل معركة او غزوة حربية يقوم بها . فاصبحت ذات ميول عسكرية تجيد فنون القتال في الحرب ، وكانت ايضا تساعد الجنود في المعارك وتدلهم على نقاط الضعف والاقتحام حتى ذاع صيتها في البلاد .

فاحبها الملك الاشوري ووقع بها . فكان ينعم عليها الهدايا . وذات يوم امر زوجها الضابط ان يتنازل عنها ويتركها له ويزوجه من ابنته « سوزان » الا ان الضابط « مينونيس » رد طلبه فهدده الملك وعاقبه عقابا شديدا . ولكن مينونيس ابى ان يتنازل عن محبوبته سمراميس . وذات مرة عاد الملك الاشوري وهدده بقسوة وحاول ان ينزل به العقاب ويفقأ عينيه ، فانصاع الضابط رغم ارادته وسلمه حبيبة القلب والزوجة المخلصة سمراميس .

وتروي الاسطورة ان الضابط فضل الانتحار فمات ثم اتلفت جثته . وبعد ذلك تزوج الملك الاشوري منها ونادى باسمها امبراطورة على مملكة آشور . ولكن سمراميس كانت حزينة دوما تبكي زوجها الضابط في السر . وفي رواية اخرى يقال ان سمراميس طلبت من الملك الاشوري زوجها بان تحكم وتمارس السلطة ولو لاربعة ايام ، فانصاع لها الملك وقلدها السلطان . ولكن سرعان

١ ــ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص١٥٥ ج١ بغداد١٩٥١

تحقيق التعاون بين مجموعات الاطفال والمعلم لتاليف واخراج قصة او تحويل درس الى رواية والتدرب عليها مما يهيء للاطفال فرصة لاكتساب خبرات تربوية تعليمية نذكر اهمها على سبيل المثال لا الحصر :

ــ تعويد الاطفال على العمل التعاوني في مجموعات بما يشبع اهتماماتهم بطريق غير مباشر وهو أهم ما في التربية الاجتماعية الديمقراطية .

ــ اكتشاف استعدادات ومواهب الاطفال والعمل على تنميتها بالعمل .

ــ تساعده على التعبير عن نفسه تعبيرا ابداعيا في القصة وتمثيل الشخوص .

ــ تنمية القدرة اللغوية عند الطفل ومساعدته على التعبير السليم في مواقف طبيعية .

ــ يكتسب مهارات متزايدة في تكامل المعرفة بالعلم والعمل .

ــ الاحساس بالرضا والنجاح من جراء اتمام العمل .

ــ تنمية الامن والراحة النفسية لانا اعطيناه الفرصة للتعبير عن توتراته الداخلية باشتراكه في التاليف والاخراج والتعبير .

ــ الفهم والتدرب على ان يشترك في المجموعات كمستمع منظم ذي غاية .

اما عدة مسرح خيال الظل فهي بسيطة للغاية نفصلها فيما يلي :

ــ المسرح وهو شاشة بيضاء من الورق (نصف شفاف) او القماش الابيض مقامة على قائمتين او اطار صندوق بعمل في شكل كشك ويوضع وقت الاستعمال فوق منضدة المعلم في الفصل .

(للشاشة القماش ميزة امكان تثبيت بعض المناظر عليها اثناء سرد الرواية بطريقة اللوحة الوبرية) .

ــ لمبة او مصباح بترولي عادي يوضع بجوار المحرك للشخوص وعلى بعد مناسب من الشاشة .

ــ شخوص القصة المطلوب تمثيلها ، وهي من الكرتون ويثبت في بعضها من الخلف عيدان من جريد الاقفاص ، بواسطة دبوس رسم ، والبعض الاخر مما سيثبت على الشاشة يلصق عليه قطع من الكستور او الفانلة .

ــ تمرين مجموعات من الطلبة على العمل ما او مع المدرس سواء في تاليف الرواية او تحويل الدرس الى قصة او اخراجها او تكوين الشخوص او تحريكها ساعة التمثيل .

وجل ما ابتغي ان يتبنى المعلمون في بلادنا ــ كل في مدرسته ــ هذا المشروع ليتحقق تعميمه في مدارس العالم العربي عامة والمدارس الريفية على وجه الخصوص حتى نستطيع ان نحقق برنامجا تربويا فعالا لتحقيق السلوك الاجتماعي الديمقراطي الواعي في اطفالنا عن طريق النظر والعمل متكاملين . وساتبع ذلك بنشر كيفية تحويل الدروس الى دراما وطرق تنفيذها على المسرح .

واختتم مقالي برجائي الى كل من يتبنى هذا المشروع ويحتاج الى شيء من الايضاح وطريقة العمل التفصيلية او يجد انه من الممكن ان يستفيد مني الا يتردد في مكاتبتي ، وانا على الوعد ساجيبه لبيك ! !

القاهرة — مكرم سمعان

ما دست اليه السم فمات واستولت على العرش واصبحت وصية لابنائه الاربعة .

ومما يقال انها قامت باصلاحات عظيمة وفتوحات واسعة وصلت بغزواتها حتى صحاري (ليبيا) وشواطىء الهند . ثم شيدت « بابل » بعد انتصاراتها واقامت لها اسوارا منيعة ثم انشأت على نهر الفرات قنطرة تعبر من تحت الماء . وكذلك قامت بتشييد هيكل فخم للاله (بيلوس) ابي زوجها الاول (مينونيس) الذي كان الاغريق يخلطون بينه وبين الاله (جوبتر) . ومما يذكر ان الحدائق المعلقة في بابل التي ذكر عنها (داريوس) انها من عمل امير من نسل الملكة (سمراميس) ، حبيبة الشعب الاشوري . ومن الجدير بالذكر ايضا ان سمراميس لم تتزوج بعد وفاة زوجها الملك خوفا لضياع زمام الحكم من يدها . ومما يقال عنها انها اختفت سرا واستحالت الى « حمامة » . فحزن عليها الشعب الاشوري ، حتى انهم صاروا يقدسون كل الحمام لان روح سمراميس قد حلت به . ويحكى ان الملكة سمراميس امرت بان يحفر على قبرها بعد الممات هذا القول العجيب :

« ان الطبيعة خلقتني امراة ولكن اعمالي ساوتني باشجع الرجال . فلقد جلست على عرش نينوى الذي يمتد ملكه شرقا الى نهر « هينامانيس » وجنوبا الى بلاد البخور والمر . وشمالا الى حدود بلاد الساس وسوجديان. ولم يتح لاشوري قبلي ان يرى البحار ، اما انا فرايت منها اربعة لم يمخر عبابها احد لبعدها . وجعلت الانهر تجري حيث اريد ، في كل مكان نافع ، فاصبحت الارض كثيرة الخصب ، وكذلك انشأت القلاع والحصون المنيعة ، وشققت بحديدي في الصخور طرقا ومسالك لمركباتي لم تقع عين حي ، حتى الحيوانات المفترسة على مثلها ، ومع ذلك لم تمنعني هذه المشاغل من ان آخذ قسطي ايضا من اللهو والحب. »(٢)

تعليق : مع الاسف الشديد ان اخبار سمراميس قليلة ومع ذلك فانها تأتي عرضا في التاريخ الاشوري . وقصتها كما ظهر اقرب الى الخرافة ، لاننا لم نعثر في الحفريات على نص يشير الى قصة هذه الملكة المحبوبة ، الا ان قصتها تأتي كما قلنا عرضا في التاريخ الاشوري . ومن يدري لعلنا سنحصل على كتابات تشير او تشرح سيرة حياتها مفصلا فنترك الامر للزمن .

اسطورة « الدم » السومرية

.. في الكتب السماوية المقدسة اخبار لبعض القصص والاساطير وردت من باب الموعظة وفعل الخير والابتعاد عن الشر . فمن الامثال المهمة التي جاءت في الكتاب المقدس آيات عن قصة « الدم » التي تعد من البلايا العشر التي سلطها الله على الفرعون لعدم السماح لموسى وقومه بالخروج من ارض مصر . ففي الاية (١٧) الاصحاح السادس سفر الخروج جاء « اني انا الرب أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دما . » و « قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وعلى انهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما . فيكون دم في كل ارض مصر في الاخشاب وفي الاحجار ... ففعل هكذا موسى وهرون كما امر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر امام عيني فرعون وامام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دما . » آية (١٩) الاصحاح السابع الخروج. وكذلك اشارات اخرى حول امتلاء نهر مصر بالضفادع . الاصحاح الثامن آية (٢ ، ٣ ، ٤) الخروج .

ولا ريب ان مثل هذه الاشارات قد اكد عليها القرآن الكريم قوله تعالى « فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » الاعراف آية (١٣٢) . ومن الجدير بالبحث ان الاساطير الفرعونية القديمة والفينيقية والحثية والهندية والصينية القديمة لم تذكر اي اشارة الى قصة «الدم» التي أكدت عليها الكتب المقدسة كحدث من الحوادث المهمة في تاريخ حضارات الامم الشرقية القديمة . ولكن من الظريف ان ترد الينا اسطورة سومرية تشير الى قصة « الدم » يعود تاريخها الى النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد . عثر عليها في خرائب مدينة (نفر) – في قضاء عفك بلواء الديوانية جنوب العراق الان – في حفائر البعثة الاميركية الاثارية لجامعة بنسلفانيا قبل خمسين سنة . كسرها الطينية محفوظة الان بالمتحف الوطني باسطنبول ، مدونة بالشعر عدد ابياتها مائتا بيت . بدايتها ونهايتها محطمة نتيجة للعوارض الارضية . فقد انخرم منها حوالي الـ١٥٠ بيتا . نقل كتاباتها البرفسور كريمر عام ١٩٤٦ واظهرها بعد الترجمة والدرس عام ١٩٤٩ حيث يعد من اسبق الناشرين اليها (٣) .

فكرة الاسطورة : « تبدأ الاسطورة بان شخصا قام بتدريب غراب على ان يأتي ببعض الاشياء المفيدة وفقا لمشيئة سيده . وعلى هذا فقد امتلأ ببستان الملك – لا يعرف اسمه – وقصره بانواع من شجر النخيل المعروف بالسومرية بـ (كش امار) وامتلأت كذلك معابد الالهة العظام بانواع من الثمار . وتذكر الاسطورة ان فلاحا اسمه (شوكاليتدا) قد اصابته الكوارث ، وانه مهما حاول الفرس واعتنى بالحرث والارواء كان يضيع عبثا . وكانت تعاكسه الريح العاتية وتعبث بجهوده هي الاخرى . وما عليه الا ان يرفع عينيه الى آلهة الشرق والغرب طلبا للنجدة والمعونة (٤) . وبعد ان تروى بالحكمة وعرف ارادة الالهة غرس شجرة في بستانه تصفها الاسطورة بانها كبيرة الظل ، فاستطاع ان يغرس تحتها بفضل اختراعه وتفكيره شجرا .. (هذه الاشارة في غاية الاهمية اذ تدل على ان قدماء العراقيين يعرفون زراعة الاشجار المثمرة التي تعرف اليوم عندنا باسم زراعة التحتاني ، كزراعة الليمون والبرتقال وباقي الحمضيات تحت ظلال شجر النخيل بين المسافات التي تترك بين نخلة واخرى تؤيد بذلك الكتابات المسمارية (٥). وتذكر الاسطورة كذلك ان الالهة السومرية (اينانا) – عشتار كانت قد اقامت برحلة الى السماء والى الارض . وساحت

٢ – جستاف لوبون : حضارة بابل واشور ص ٢٢ ، ترجمة محمود خيرت المحامي طبعة ١٩٤٧ القاهرة

٣ – Kramer : Archiv Orientalni Vol. XVII (1949), No. 1.

٤ – نفس المصدر ص ٤٠٠

٥ – سومرج الجلد٦ ١٩٥١ ص٣٧ اشارة للاستاذ طه باقر .

٦ – كاظم الجنابي : مجلة الاديب عدد (١٢) ص٢٣ ١٩٥٥ السنة الرابعة عشرة .

نصف دنياي في شعرها

لشارل بودلير

○

دعيني استنشق طويلا طويلا ... اريج شعرك ، واغرق فيه وجهي ، كالظامىء المكترع من الينبوع ... وألوّحه بيدي كمنديل عطر ، علني انثر ذكريات للهواء !

آه ! لو تعلمين ما اراه ، وما احسه ، وما اسمعه في شعرك ؟ ان روحي تسافر على متن العطر ، كما تسافر ارواح الآخرين على متن النغم !

ان شعرك يحوي حلما كاملا ، من الصواري والاشرعة . انه يحوي بحارا مترامية يحملني زبدها نحو اجواء فاتنة ، حيث السطح اكثر زرقة وعمقا ، والطقس مضمّخ بالفواكه والاوراق والبشرات الادمية ...

في محيط شعرك ، المح مرفأ يعجّ بالاغاني الكئيبة ، برجال اشداء من كل الامم ، وبسفن من كل الاشكال ، انتشرت زخارفها الدقيقة المعقدة ، فوق سماء هائلة ، تسلقني فيها الحرارة الخالدة ..

عندما اداعب شعرك ، استرجع وهن الساعات الطويلة التي تنقضي على اريكة ، في احدى غرف سفينة ريقة ، هدهدها همس ارجوحة المرفأ ، بين جص الازاهير ، والاباريق الباردة ..

في حرارة موقد شعرك اتنفس رائحة التبغ الممزوجة بالافيون والسكّر ...

وفي ليل شعرك ارى سطوع اللامحدود في مدار الافق ... ومن زغبات شعرك اسكر بالعطور المضمخة بالقطران والمسك ، وزيت جوز الهند ...

دعيني انهش طويلا ، جدائلك الوزانة الفاحمة ، فعندما انهش ضفائرك المطاطة المتمردة ، يخيل اليّ ، اني آكل الذكريات ...

القيروان ـ تونس **الطيب الشريف**

في البلدان المجاورة كاعيلام و (شبور)حتى اعياهـا التعب من كثرة السفر . فاختارت موضعا لطيفا كثير الظل في بستان (شوكالتيدا) واضطجعت لتصرف عنها عناء التعب ومشاق السفر . ولما رأى (شوكالتيدا) هذا المنظر المغري سولت له نفسه بانتهاك حرمتها . ولما جاء الغد احست ايننا بفعلته الشنيعة فثارت وغضبت غضبا شديدا حتى انها صممت على افناء البشر وقتلهم اجمعين. واول ما عملت انها صبت على البلاد ثلاثة انواع من البلايا لانها لم تظفر او تعثر على (شوكالتيدا) البستاني لتفتك به. فسلطت الرياح والاعاصير العاتية ، وملأت الابار والينابيع « بالدماء » اما البلاء الثالث فلا يعرف ـ يحتمل عندنا ان يكون قد سلطت الضفادع او احدثت الطوفان على غرار ما احدثته من الطوفان في مقاطعة (ارتا) جنوب ايران في قصة البطل السومري انمركار (٦) ـ وعلى هذا فان ايننا لم تعثر على البستاني الذي عمل المصيبة لانـه تعود ان يحتمي في بيت ابيه بعد كل كارثة او حدوث وباء ليطلب منه النصح والارشاد . ولكن جهود ايننا ذهبت عبثا وباءت بالفشل وقررت الذهاب الى (اريدو) ـ قرب الناصرة الان جنوب العراق ـ ليصفح عنها اله الحكمة السومرية (انكي) ويكفر عن خطيئتها . »

تعليق : ذكرت ملحمة « جلجامش » الشهيـرة ان (ايننا) عشتار كانت قد وقعت في غرام (ايشولانونا) فلاح نخيل ابيها الذي كان يأتيها دوما بعذوق التمر ، ويحتمل ان يكون (ايشولانونا) هذا هو شوكالتيدا وانه لفرط غرامه بعشتار وما اصابه من عناء الحب ومصائبه ولهجرانها له والصدود عنه لانها قد احبت غيره قرر الانتقام منها على ما يظهر . وعلى هذا يمكننا ان نعد هذه الاسطورة السومرية من اقاصيص الحكمة والموعظة والابتعاد عن الشر والانتقام عند قدماء العراقيين .

بغـداد **كاظـم الجنـابي**

مكتبة الاديب

عيد الريـــاض

ملحمة لبولس سلامة – ابياتها حوالي ثمانية الاف – ٦٠٠ صفحة حجم كبير – المطبعة البولسية حريصا لبنان

كنت افضل ، وانا داخل هذه الملحمة من بابها ، اي مقدمتها ، الا يكون شاعرها ، الذي مر بأثنتين وعشرين عملية جراحية ، فكان على حد تعبيره : « زورقا بشريا سابحا في جحيم العذاب » يتحمل الالم ليحيله فلسفة مرة ، وبطولة اخرى ... ، قد تبرم بعنت المتعنتين عليه ، والمتشددين في تعصبهم للافك والخرافة عقب صدور ملحمة « عيد الغدير » .

اجل ، كنت احب له ، من صميم قلبي ومن لب عاقلتي ، الا يكون برما بهؤلاء ؛ فمن اتسع مداه هذه السعة الاسطورية ، ومن جنح البطولات « مسمرا الى سرير الالم » فهو خليق بالا يعثرنا في مدخل ملحمته الكبرى ، بما لا نود ان يكون منه ... !

اما عناية سلامه ببحث تعريف الملحمة ، من حيث اعتمادها الاسطورة لا التاريخ ، والاسلوب القصصي لا الشخصي ، وغير ذلك مما عرف لها كمميزات ، فاننا نرى لتعريفها جامعا للعقول لا اختلاف فيه ؛ هو ان الملحمة نشيد بطولي طويل النفس ، يتميز بروعة التفوق وسماوة الابداع ، واحداث النخوة ، واستفزازها . وسواء في ذلك عناصر حبكة الالياذة والكوميدي الالهية ؛ فالمهم ان تكون نقطة الانطلاق قائمة على مجالي بطولة مشهورة . وفي دنيا التوحيد تغني خوارق العادة عن الخرافة، فقد يخفق الايمان بأجنحته الفتية عند اعتاب الالوهية ...

و « عيد الرياض » ، على الرغم مما فيه من تاريخ ، وعلى ما فيه من انحراف عن النهج القصصي ، يمتد في ملحمة رائعة البطولة، ممردة النخوة ، عتية العنفوان ، متماسكة القصيد . وهناك ، على ذروة من مرابيء النسور ، وفي غفلات من عضات الالم المرير ، نسج بولس سلامه أبراد « عيد الرياض » .

وكأني بالشاعر شاء ان يدخل في روع قارئه انه كان جديرا بان يجعل من عنترة بطل ملحمة . فاسمعه ، في الصفحة الخمسين من احلام الجزيرة يقول :

ذكرت عنترا فهلت على الليل   « التهامي » نجمة زهراء
غار منها الابنوس لونا وقدا   فهو والدوح في المرود سواء
اسودالجلد ابيض الخلق شهم   عذب الماء واكفهر الاناء
ليس عف الازار والكف عبدا   انما العبد نفسه السوداء

• • • • •

بعث الحرب «داحس» فاستطارت   وامدت بالعثير الغبراء
امطرت نارها نجيعا ودمعا   ومن الحافرين ذر البلاء
وبنو «العبس» جمرة العرب لولا   عنتر لاعترى سناها انطفاء
اذ ينادون : ويك عنتر اقدم ،   وعزيز على النجيد النداء
المروآت في دماه استجابت   واستشاط الفؤاد والاحناء
فرمى في العجاج مهرا قتاما
كان ليلا فحمرته الدماء
قنفذا عاد من وقوع السهام
الزرق غصت بسيلها الاعضاء

• • • •

لم يروع « ابا الفوارس » جيش
كلما ازداد زاد منه المضاء
خلفه طرف عبلة ولماها   فالمنايا لطرفه اغراء

عفوا ، فالشاعر ، في « عيد الرياض » يعاني مشقة خلق اواصر اخر لاناشيده تعيضه عن حبكة الغرام التي أسعفت فيها عرائس الحسن شعراء الملاحم الخالدة . واما هنا فعبلة تمر طيفا في « احلام الجزيرة » نتركها لكي :

تهبط الشمس تستحم بعينيها ، فيحلو الضحى ويزكى الخباء

او لنحس ان :

باسمها تركد الهواجر ، والصحراء تندى ، ويستطاب الهواء

وهل نستعيد أطياف احلام الجزيرة دون ان نلمح قبر حاتم الطائي ، اسطورة الجود ، ونقرأ قولة الجود في صاحبه :

اقسم الجود بالذي في ظلام الرمس الا تجوزه عجفاء
اشبع الارض حاتم وهو حي   ولها منه في الضريح غذاء

وحلم الجزيرة الاكبر ، صاحب الشريعة السمحاء ، أيمر الشاعر بجاهلية الجزيرة ، دون ان يطيب نفسه بفوحه ، وينور شعره بنوره ، ويهز البطولات ببطولته ؟!

لا ، فله من صباح الجزيرة اشراق على « عيد الرياض » هاك بعض بريقه :

هللي ، يا جزيرة العرب ، فالاسحار لاحت وانجابت الظلماء
ارهف الكون سمعه وتمشت   في شرايينه الرؤى والصفاء
انصت الدهر خاشعا وتولت   سدرة الوحي والبيان حراء

اي غاد ذاك الذي وسع الرؤيا ومن وقرها ينوء الفضاء
كيف لم تنفجر زواياه اشلاء فتهوي لزمزم الاحناء

• • • • •

لحظة جازت العصور وندت   فهي في صفحة العصور امتلاء
ابد ملؤها ، فمالها بعد ،   لا مزيد ، لا غاية ، لا انتهاء

• • • • •

فالصعيد الذي رعى ظل طه   كل ما فيه روضة غيناء
يخفق المنبر اليبيس ويحنو   ومن الوجد تنطق الحصباء

• • • • •

قدس المصحف المجيد يسوعا   وعلى الشمس قرت العذراء

واذا كان الشاعر سلامه دأبه الخروج عن نطاق الحادثة المرة ، في كتابه « مذكرات جريح » الى النظرة الفلسفية ، استدراكا منه لدفع الاسى عن نفس قارئه ، وحمله على تنمية انسانية ؛ فهو في « عيد الرياض » يخرج من نطاقها السعودي ، لكي يعني باناشيدها ، الماردة الهادرة ، حينا ، والعازفة في مباهج البطولة ، حينا آخر ، كل من لم يطلق شاعريته ممن خلقوا شعراء ، او يهز بها أصحاب الذائقة الفنية ، التي تستسيغ الانطلاق وتعجب بالمهمة التي عناها الحدث الخلاق . ومن الخير ان لا ننسى ضرورة العودة ، في مثل هذا الحدث ، الى حشد

الالفاظ القوية ، من مألوف الاستعمال أو قليله ، مؤالفة والمنفوان الذي يستمر ممسكا بقوافي الملحمة .

ولما كانت الاف الابيات التي تجنح فيها التاريخ اسطورة رائعة الخيال، كان لا بد لسلامه من ان يتنزى لكارثة فلسطين ، قدس الشرق العربي ، فيقول مخاطبا « شركاء الذئاب » :

قد بعثتم في العرب جذوة حقد تكتسيها الاصباح والامساء
بفم الشيخ لعنة حين يمضي ومع الطفل تولد البغضاء

ثم يخاطب بطل اليرموك منشدا :

خالد بن الوليد ارثك نهب ورثته الرعاع واللقطاء
فكأن « اليرموك » لم تبل فيه ضمر يعربية جرداء
يوم ريعت ، من صهلة الخيل ، « بيزنطا » وبادت كتائب خرساء
يوم للصيد ، من حواليك ، زأر وعلى حومة المنون ارتماء

ولا ينسى « حطين » فينشد :

تل « حطين » عن خلال صلاح الدين حدث ولتسمع الشرفاء
فحديث العلى ندي على الاسماع ، والذكر حافز وعزاء

ولعله أراد ان يحفز الى الثأر « لدير ياسين » التي ارتكب فيها الصهاينة فظائع لم يتلوث تاريخ البشرية بأفجع منها في القلوب واقذى على المروات ...!!!

دير ياسين ، يا ديار اليتامى حيثما حقر السيوف ارتواء
حيث بالقتل والغنيمة اغراء وبالعرض والنهى ازراء
حيث تستهدف الرماح الحبالى فعلى الرمح للجنين ارتقاء
يهتك الستر عن بياض الغواني وعلى الطهر تسدل الفحشاء
رب خود جزت غدائرها الشقراء فالراس هامة صلعاء

وبينا كان الشاعر يمضي في ملحمته ، متأثرا بفظائع تضيق النعوت بضراوتها وصفا ، ليخص الوهابية بنشيد فيه صفع المتمونين صفعة هائلة باعقاب قواف ميمية ، كأنها الرماح في ساحة طراد :

برىء الدين والتصوف من قوم بغير الاله والدين هاموا
نزوات جنسية ستروها ولقد يستر الفرور قتام
من تجلى له الاله بأنثى فسواء اخلاقه والجذام

ولعلها صفعة محقة ، او لعل اجنحة الوهابية ارادت لها ذلك ... وعلى كل حال فنحن نقره على قوله هذا :

الصلاة الصلاة خفقة قلب يرتضيها المهيمن العلام
غاية الدين ان يكون بسيطا فكتاب، وسنة ، واعتصام...

ولنمض مع شاعرنا الكبير فليس ل « بياتريس (1) » ؛ حسناءدانتي، ولا لاخواتها من حسان الخيال مكان هنا ، ولو جئن ليعبرن بنا الى الجنة. فنحن هناك ، مع سلامه في « العارض(2) » لنرى كيف ينبت الابطال انباتا فريدا في غابات من الرماح :

انبت «العارض» الانوف ليوثا دأبها ، العمر ، زأرة واقتحام
أسل في سفوحه ، للرماح السمر ، يحبو على قناها الفلام
سبحة «العارضي» سير لجام لكميت ، وللهجان خطام

للمواضي، منذ الفطام، التماس للمنايا منذ الشباب استلام
ضمر الخيل والزنود ، وفي الهيجا ثقال على العدو ضخام

واذا ما بلغ الشاعر حادث اغتيال الامير عبد العزيز ؛ بينما كان يصلي ، جعله حائط الامن يهوي اماما في صلاة ، وبلغ في بيت واحد قولة في سقوط البطل ، لم يسبق اليها :

ومضى الخلد بالوسام دميا انما مصرع الشهيد وسام

واحال الثأر للقتيل الكبير على سيف الامير سعود ، جد الملك سعود، فقال :

سيفل الحصون سيف سعود ومن الضرب تستجير الاكام

وفي وصف سعود الكبير يدوي نشيد دالي هادرا في مسمع الزمان :

سدرة المجد ، قد أتاك العميد فسعود في راحتيه الخلود
فانشريه على المشارق سفرا فيهل السنا ويندى القصيد
علم في تخاطب ومناداة ، وفي مسمع الزمان نشيد
في جوار الهصور تغدوالثعالي أسد غاب فكيف تغدو الاسود ؟!
صيحة منك يا « هنيبعل » نجد تستبيح الذرى فتهوي السدود
وتحيد القلاع عن سيفه الرعاف ، والسيف قلعة لا تحيد
قلبه كالحسام صدق مضاء منه كان الوغى وكان الحديد

ولكن سعودا لم تستو له حلبة النصر ، فتنحدر به قواهر الظروف فيقول الشاعر ، مرددا ذكرى مأساة خيبة هنيبعل :

انما المجد فرصة ، فاذا فاتت ، فملء الحياة الام نادم
سل «هنيبعل» وهو قاهر « روما » كيف حالت زهر الليالي البواسم ؟

ولا بد للشاعر ، وهو في مرارة خيبة ؛ من ان يذكر ب « هدنة الشؤم » في فلسطين ، فهي انحدار عن قمة نصر كان وشيكا . فاسمعه يقول :

هل فلسطين بعد هدنة شؤم غير شلو تناوشته اللهاذم
تل « آبيب » كان ادنى مساغا من كؤوس الطلا بكف منادم
فقد الصل ذيله ، وفقار الصل ديست ، والراس كالبطن وارم
يتلوى في جحره ، ويكاد البرد يقضي على الخبيث الناعم

وها هو بارق الامل يلوح على الرياض ففيصل سيطلع طلوع الصباح ليمزق الظلام والظالمين ويثأر للدم الكريم ، دم الامير تركي :

لمس السيف صنوه فاستشاط العضب ، وانحل في السعير القراب
جمرة صار حده فاضاء الليل من وهجه ، وغار الشهاب
مقبض السيف«بالقطيف» ولكن يمم القصرفي «الرياض»الذباب(3)

وفي وحدة الاسم بين فيصل السيف وفيصل الامير يمضي سلامه في مناجاة رائعة أنطق الحسام فيها قوله :

في فرندي لظى الجحيم ويبقى فيك من جارك السمي ارتياب؟!
فيك مني المضاء نمتا وعزما وضرابا ، ولي اليك انتساب

وينتصر فيصل فيقتل « مشاري » بن عبد الرحمن فتؤلب تركيا الخصوم على فيصل ، فيبقى فيصل :

يلتقيهم بمنسر ترشح الآجال منه ، ويرهب الارهاب !
فسعيد من حاد عن جوه الدامي ، وانجاه في الضباب انسياب

---

1) بياتريس : امراة من فلورنسا ، رآها دانتي ثلاث مرات في حياته ، فاحبها حبا عظيما . ماتت في الخامسة والثلاثين من عمرها ، فحزن عليها فخلدها في ملحمته « الكوميدي الالهية » اذ جعلها مرشده في الجنة .

2) العارض : يعرف في الجغرافية القديمة بالعروض واليمامة ؛ واهله مشهورون بشجاعتهم وعظيم ايمانهم

3) الذباب : طرف السيف الذي يضرب منه .

ولن أطيل على القارىء ؛ فاولاد فيصل مروا باهوال معارك شديدة الوطأة تحملوا فيها ما لا يطاق تصوره : من تفوق الخصوم عددا وعدة ، ومن نفاد مؤن ، ومن تيه وحرمان ... وانكى من ذلك كله حماية ناء بها الشاعر بدلا من فيصل فقال :

ليته ظل في الكبول ، فما الاغلال تزدي بهيبة الصنديد
او طريدا فكم تضم البوادي   من هصور كل النيوب طريد
جوهر النار لهبها ويلاشيها غزير الندى وفرط الركود

ولست استطيع المرور بهذا « الانهيار » من اناشيد هذه الملحمة دون ان انقل الى من يهمهم عمق الشاعر وامتداد عبقريته الى أقصى ما يخال من ابعاد الفكر والخيال هذه الابيات :

توجز العمر نظرة ، في ثناياها ، ختام المأساة للمفؤود
فتكر الاشباح كر شهاب   يتلاشى على غروب الوجود
النهايات كالبداءات ذرات ، وبين القطبين شوط الخلود

وكان ميلاد عبد العزيز ، بطل الملحمة « قبسا في الدجى » نقل بشراه ناسج حلل عيد الرياض ووصف بطولة الوليد بنشيد كله سماوة ابداع ؛ منه :

ابشري ، يا جزيرة العرب ، فالمولود صبح الرجاء غب اعتكاره
يطلع الفجر اشقرا من سجاياه ، وغيد الرؤى بنات اسمراره
ستكون البيض الرقاق نداماه ، وزرق النصول من سماره
حرم غابه على مبتغيه   فطوال الرماح في أشجاره
وشواظ البنادق السمر ، افواه المنايا ، تكون في أثماره
تتحامى العقاب اجواءه الحرى ، فرارا من وقده وبخاره

• • • • •

عمر هذا الوليد امس عريق   وغد لا تغيب شمس نهاره
يا لطفل سيحمل الامس ، كل الامس ، في مجده وفي أوزاره
لا تطيق الجبال ما طقت لكن   كل بحر يعطي على مقداره
عمق لجاته ، وبعد شواطيه ، يسعن الغمار من انهاره

ثم يمضي سلامه في نشيد « الطفولة » طفولة عبد العزيز فيغمر خصبها بخصب . بطولة تتهيأ لبناء ملك ورفع أمجاد ؛ وبطولة تمد لها رحابا في آفاق الابداع ، فتتبادل ذروات الخلق غار الخلود :

لا تسل كيف يضرب النسر بالمنقار ، او كيف يعتلي ، او يطير
في جناحيه عزم بضعة أجيال تدل الصغير كيف المسير
مثلما تعرف الكواكب مسراها ، ويلقي تغريده الشحرور
لا تقل باشق صغير ، ضعيف الحيل ، كلا ! ما في البزاة صغير
لا يقر الشاهين حيث يعيش البوم ، او حيث ينعم الزرزور
يقلق النسر في السهول ويأباها فحيث العلى ، هناك النسور

• • • • •

لا يهزون في « الرياض » سريرا لوليد ، سرج الحصان السرير

• • • • •

الحشايا لغيره فعليه   للمواضي وللرماح نذور
فلينم غيره اذا شاء نوما   ان ليل المخنثين شخير

ومما يدعو الى الاعجاب ان هذا الشاعر النصراني ، سمي فيلسوف المسيحية بولس ، قد دخل الى لب الصلاة المسجدية وورعها ، في بساطة المكان يعتكف فيه المصلي اذ قال :

بين جدران معبد كجبين الحق عار ، كما تجرد نور
لا بهاء يشت بال المصلي   فتسود الاحلام واللاشعور
ان في المعبد البسيط حصيرا   طالما علم الخشوع الحصير

ويصبح عبد العزيز صبيا فتتراءى له الدعوة الحمراء التي اذاعها سالم بن سبهان ، ففتك فيها ، ذئبا ، وقتل فيها خلقا كثيرا من قربى عبد العزيز واعوانه ؛ فيقول الشاعر :

قرم الباز للحوم ولو فرخا ، فعبد العزيز باز خطير
حركت رؤية الدماء جناحيه ، واورى فؤاده التخدير
وعزيز على النسور ، ولو زغبا غضاضا ، ألا تصان الوكور

ثم تراءى للشاعر ان سيعود السعوديون الى عليائهم ؛ فالرياض ارضهم :

فاذا يسألون عنها أجابوا   هي حيث الريحان والكافور
حيثما تقرب السماء من الارض فللقلب فوقها تسمير

• • • • •

ستعودون مثلما عادت الشمس ، وهل الضحى ، وفاض العبير
انسرا دونها الجبال شموخا   والثريا اكليلها المضفور

وتمتد المحنة ... فهناك المنفى بانتظار هذه النسور ، قبل عودتها الى جبالها ، وقبل ان تعقد لها الثريا اكليلا من غار الخلود ... ويعيشون، في منفاهم ، زمنا ، عيشا أمض من عيش الاسير :

قد يكون الاسير ايسر قيدا   من طليق فؤاده مغلول
حوله السن الصلال ، وفي زنديه من لفة الافاعي كبول

فاذا بهم ينفرون نفارا عزيزا حفاظا على نبلهم الاعز ، غير محتسبين لهول او صعوبة او فقر ، حتى ولا للقاء حتف :

تؤثر الموت ، دون عرض كمثلوج الروابي ، ولا تهون البتول
فليظل الحريم في ذمة البحرين ، حيث الهواء رطب عليل
وليسر بالذكور ، حيث يئن الفيل من لافح ، وتحيا الشبول

ويضرب عبد العزيز في البلاد اللاهبة الخاوية لينتهي الى الكويت، وهو كما يبدو من خلال هذه الابيات :

البلايا تشدد الليث مأسورا ، وتوري من عزمه وارتجاله
ابدا جرحه يزمجر للثأر ، فلا تأذن العلى في اندماله
من وراء الحديد والقفص الداجي ، يعد القوى ليوم صياله
فيصك القضبان بالمخلب الدامي ، لعل الفولاذ يدري بحاله
فتحول الصم الدقاق حرابا   او سيوفا قواضبا في قتاله

• • • • •

يصمد الليث للخطوب ويخفي   ناغرات الجروح عن أشباله
اذ يكون البركان والحمم الحراق بعضا من همه وانفعاله

وتتوالى جائشات المحن ؛ فمن « الصريف » انطلقت عصائب عبد العزيز الى « واحة جبرين » حيث يفطرون على تمرة وقرص شعير وضب نيء :

وتسيخ الاقدام في الدعص لهابا حميما فتكره الحماما
والزمهرير ، في المساء ، يشل الكف حتى لتجهل الابهاما

ونما الهلال ، فخاطب الشاعر بطل ملحمته قائلا :

سقفك الازرق الرفيع ، نسيج الله ، فاجمع نجومه أكواما
ان في معرض الطبيعة ابكارا   فزحزح عن حسنهن اللثاما

وتمضي عصائب عبد العزيز ، وهذه حالهم :

المنايا تفر منهم ، كأن الموت ، في وجههم يسد الرجاما

او يهاب الجراح اذ كل جرح   في صدور العراة يبدو وساما

• • • • •

فكان الحفاء والجوع والحرمان كانت لعزمهم ارحاما

كان لالياذة هوميروس « حصان طروادة » مفتاحا للنصر ؛ وفي « عيد الرياض » تستمر النخلة عمود الاعجوزة ، اعجوزة الحفاة العراة ، فعلى جذع نخلة تسامى عبد العزيز وابطاله العشرة المختارون ليدهم حصن الامير عجلان . فكانت هذه المحاولة شيئا عجبا أنطق الشاعر قولا خالدا على الدهور :

ايها الجذع كنت معراج خلد   فمن الحيف ان تعود هباء
كان اولى بك البقاء ، فلا تفنى أداة تبلغ العلياء
عجبا كيف لم تئن من الوقر ، فهل كنت صخرة خرساء
جاز من فوقك الاسود ، ولو مروا بطود من الجبال لناء
تخذ الدهر في جذورك مأواه فجمعت قوة غلباء

• • • • •

آية الاسد ان تمجد هوجا   او غضابا وتزدرى ودعاء

• • • • •

يا لها ساعة تبدت ثوانيها قرونا بالمدهشات ملاء

أجل ، لقد كانت ساعة فاصلة في تاريخ بطولة لم يخيبها « جذع النخلة » . فعبد العزيز ورفاقه الابطال دخلوا الحصن :

ان للحرب ، مثلما لسواها   عند ارباب فنها كيمياء
اذ تحيل الجرح العميق وساما   وتحيل الموت الذريع افتداء

• • • • •

ايه عبد العزيز والوقت هول   ظفرا ، أم هزيمة شنعاء
لن ترى مثلها هنيهات روع   تلمت في غضونها الانداء
شخص الدهر نحو عينيك فازار   وأثر من رمادها الهيجاء
ها هو المجد عند رجليك جاث   كاد يلوي جبينه استجداء

• • • • •

لم تكن غير ساعة وفتحتم   معقلا كان يحضن الكبرياء

لنقف ، هنا مرة اخرى ، يا « شاعر الرياض » فقد مددت يدك البانية الى الهدم ! فلم قولك :

من((أخيل)) حياله، من((أذيس)) ؟   ما الاساطير غير وهم تناءى
زخرفته يد الخيال ورقته ، فجاز الحقيقة استعلاء
وعجيب ان يشغل الكون وهم   هل وحيا بمقلة عمياء
أنكفته السماك ريشة مكفوف   عديم كعصفر البيداء
فادار الحروب من حول انثى   لوثت صفحة ((الاتيك)) بغاء

ما أردت لك ان تتبرم بعنت المتشددين « للافك والخرافة » في ما تقدم ... وهنا لا اريد لك ، مرة اخرى ، ان تضيق بشاعر خلاق ؛ فترى « عجيبا ان يشغل الكون وحي هل بمقلته العمياء » ؟ فاذا لم يكن من الضروري نفي التاريخ من الملحمة فليس من الصواب في شيء ان تبعد الاساطير عن اجواء الملحمة ! وما الذي يبقى للشاعر سلامه من حدث في الشعر ، ومن مهمة خلق ، لو دارت قوافيه على غير تضخيم البطولة ؟! أو لم تقل بكيمياء الحرب ؟ أو ليس للاعمى عن الواقع ، البصير في آفاق البطولة « هوميروس » او سواه من العميان المبصرين ، ان ينظروا من خلال عماهم دنيا لا نراها بعيني رأسنا ؟! أو لا تقر بتفوق الانسان عن طريق مركب النقص ، ايها الشاعر الفيلسوف ؟! أقول الفيلسوف ، واعني صادقا مطربا ما اقول . انت فلسفت الالم فلسفة كنت لها أبا . وطيرت التاريخ في مهب الملاحم ، فاترك لزميلك ابداع عماه البصير ، وفاضل بين « أخيله » وبطل الرياض ، واخرج بما ترى من المفاضلة ... ولكن لا تلح عليه « ان يبلغ بطله السماك » ...

واما دورة الحروب حول أنثى فهي من مألوف التاريخ القديم والشعر العاصف المبدع ؛ فلا تدن هوميروس بقانون علم الاجتماع الحديث وشرائع الوحي السماوي ؛ وهو الذي يبعد عنا بشقة الزمان ، حوالى ثلاثة الاف سنة ... ! فالمرأة ، يا صديقي الشاعر ، كانت وستبقى مثيرة بطولات في الرجل ، وان كانت كثيرا ما تلحق به لوثات ، او يلحق بها . وتفاحة جدتنا الاولى كانت ، على الرغم من الزلة الكبرى ، مرقاة الى التمييز بين « الخير والشر » ..... وستبقى تلك التفاحة الكرة ، التي اضاءت معابر الوجود ، اسطورة الاساطير وفجر التاريخ ... وموعدنا معك في (ص ٥٠٤) من « عيد الرياض » .

ونعود الى مرافقة الشاعر في مراحل « عيد الرياض » فنراه يلتزم، في نشيد « مصرع النمر » عرض الاحداث والاسماء عرضا تتألق فيه بطولات مكللة بأعز اكاليل المجد ، وتنجر اليه مخاذ ومؤامرات مغمورة بفيض الشناعة والقماءة .

فهنا نصر على الاتراك هو :

مغنم رنح العرار بنجد   وافاض الريحان في بطحائه

وهناك توزيع مغانم ثمينة وفيرة ، لم يحتفظ ، لنفسه منها ، القائد الظافر :

يمسك الحلق عن فرات قراح   وتعب الصحراء من اندائه

ويلتقي سلامه ، وقوافيه في نشوة البطولات والعزة ، تخليدا وتنزيها لمجد الرياض ... نعم ، يصطدم بشوقي ، متزلفا الى السلطان التركي الظالم الفاسق ، اذ يقول في قصور عبد الحميد ، على البوسفور :

وكان شاهقة القصور حياله   حجرات طه في الجنان وآله

وتستمر المرافقة فالاعداء تعددت ، وتركيا تحوك الدسائس وتجمع الاخصام . ويظهر على مسرح الاحداث جمال ، القائد التركي ، فيلتهب الشاعر غيظا لهذا الاسم الجميل اللفظ ، الكريه الذكريات ، في لبنان ؛ ويقول :

يا ((جمالا)) وما ذكرناك الا   سودت عتمة الرموس رؤانا
كل اثم الى الشياطين يعزى   كل اثم تمجه دنيانا
لمامته يداك من كل عصر   ورمت سهلنا به وربانا
كان سقط الايام او بصقة الدهر ، صباح القاك في لبنانا

وتنساق الابيات حمما لاهبا ، وتصويرا واقعيا هائلا ، وانشادا قوميا عامرا ...

ورضي الترك في الحجاز بالجلاء عنه ... وفي العراق ، كان والي البصرة التركي يعقد يمين المساعدة لابن الرشيد على محاربة ابن السعود ... فكان يوم جراب رجحت فيه كفة ابن الرشيد ، وقتل فيه الملازم شكسبير ، معتمد الانكليز في الهند يومئذ . فأوحى اسم الملازم القتيل الى الشاعر سلامه ان يحيي شاعر الانكليزية الاكبر ، وكانت مناسبة جمع فيها ابرز شاعرين عالميين ، في نظره ، اذ قال :

فهو والشاعر المخلد ((غوتي))   توأما حلبة ، وصنوا مجال
لو خلا الشعر منهما لتعرى   او تلظى من فقره لمثال

ولعله استدرك مصححا ، اذ خاطب شكسبير بـ « سيد الشعر في فلك الحسن ... » او لعلها المقاييس الملحمية لا تستقر في انضباط معين ...

وفي نشيد « العجمان » تتشابك الحوادث ، وتنتهي بفوز عبد العزيز ، بعد شدة وتضحيات :

ومحا الموت كل ظل لحقد   ذاك طبع الاكابر الاصلاء

وها نحن في نشيد « بطل الحضارة » وواحد الفتح بالجزيرة ... » نتبين تحولا في الحوادث ... فليبدأ « البطل » بالتأسيس والتنظيم ... وليحلق الشاعر مجنحا همة البطل بما لا يؤذي حدود الروعة الملحمية كثيرا.

اقف عند هذا الحد من مرافقة الشاعر في رحاب مــد الحوادث وجزرها ، حول شخصية بطل « عيد الرياض » لاجمل تقديري ابداعه في هذا الفن الملحمي .

يملك بولس سلامه من مواهب شاعر الملحمة : ــ ١ ــ التماســك التعبيــري ، على مستوى رفيع ، مقرونا بميزة الصفاء الفني . ــ٢ــ استطراد النفس وترفيده بما يستتبع دون تعقيد او نبوة . ــ٣ــ تساوق الواقع والخيال ينقادان لثقافة خصبة . وامام هذه المواهب لا يملك القارىء نفسه من الاعجاب والاكبار .

ولا بد لي من ان اذكر شاعرنا الكبير سلامــه بان الصفحة ٥٠٤ اشتملت على موعد تقدم ذكره ، من اجل هذين البيتين :

كل هذا الورى ضحايا فضول بعثته اشــذاء تفاحــــات
والفراديس لم تزل عابقــات لتفصـــل النهى بحـــواءات

ولنشرك معها (ص ٥٠٥) من اجل امرأة :

هي بند الحماسة الموقظ الفرسان ، يوم النــــوائب الفاشيـــات

ويبدو لي ، وانا أخلص الى كلمة ختام ، ان اقول : ان ترفيع قصة بني هلال المعروفة بـ « التغريبة » الى الافاق الشعرية الملحمية ، وجعلها حلقة من حلقات هذه السلسلة الطويلة ، قد لا يخلو من عبرة اقحمهــا سلامة ابواب الملحمة .

نسيم نصر

الفكر العربي الحديث في سير اعلامه

ليوسف اسعد داغر ــ الجزء الثاني من مصادر الدراسة الادبيـــة الراحلون (١٨٠٠ ــ ١٩٥٥) ــ ٨٨٦ صفحة ــ حجم كبير
مطابع لبنـــان بيروت

من الادباء الذين يعملون بصمت وسكون بعيدين عن كل ضجة مصطنعة ودعاية فارغة ، الاستاذ يوسف داغر ، الاختصاصي الكبير بفن المكتبات وعلم البيبليوغرافيا ، مما يتصل بقريب او بعيد ببلــدان الشرق العربي او بالادبين العربي والاسلامي . فقد طلع على دنيـا البحث العلمي بكتاب جديد هو الحلقة الثانية من هذه المجموعة العلمية الخطيرة التي ينشرها بعنوان « مصادر الدراسة العربية » ، بعد ان اصدرت الحلقة الاولى منها منذ خمس سنوات (١) وقد اقصر البحث فيها علــى اعلام الادب العربي القديم وشوامخه في العصر الجاهلي والعصور الاسلامية المتتالية ، وفقا لمناهج التعليم الرسمية في كل من لبنان وسوريا والعراق ومصر .

والاستاذ داغر من الخبراء الثقات والاخصائيين البارزين الذيـن يتمتعون بشهرة واسعة في الاوساط العلمية ودوائر البحث في الغرب . وكلهم يعتبرونه مرجعا وثيقا ، مطلعا الاطلاع كله ، على حركة النشر والتأليف في الشرق العربي ــ متتبعا فيه لانتاج الفكر . وبهذه الثقة وهذا التقدير عهدت اليه منظمة اليونسكو بحضور مؤتمر خاص مــن علماء البيبليوغرافيا الاعلام ، عقد في لندن عام ١٩٥١ ، كما استدعته مكتبة الكونغرس في واشنطن ، في السنة التالية ١٩٥٢ للعمل فيها كمشاور فني والعمل على تنظيم وانماء القسم العربي في تلك المكتبة العظمى التي يزيد ما فيها من الكتب اليوم على عشرة ملايين كتاب . كذلك عهـدت اليه اليونسكو بنشر كتاب عن مكتبات الشرقين الادنى والاوسط كان له اكبر الوقع في الاجواء العلمية والجامعية .

وطأنا بهذا الكلام للتعريف بكفاءات الاستاذ داغر وبتجليه في حقل البيبليوغرافيا بحيث اصبح فيه علما من الاعلام ويرجع اليه في استيضاح الكثير من مظاهر الحركة الفكرية في الشرق العربي . ولعلنا لا نسيء الى الاستاذ داغر اذا ما قلنا ان الحكومة اللبنانية غمطت حق هذا الرجل يوم كان موظفا فيها ولم تعرف آنئذ ان تستفيد من علمه ومواهبه ، فلو عرفت ان تستثمرها ، لكان لنا في لبنان اليوم ، مكتبة اهلية تضاهي اهم المكتبات في العالم بغناها وتنظيمها واشعاعها ، ولكان للبنان وللثقافـة العربية في لبنان خاصة ، من عدة البحث ووسائله الشيء الكثير .

ما لنا ولهذا الاستطراد كله ، فلنعد بالقارىء الكريم لنتبين معــه خطر هذا الكتاب الجديد الذي اصدره الاستاذ داغـر في الدراسات العربية وجعل منه اداة للبحث في الادب العربي والثقافة العربيـــة الحديثة .

قلنا ان هذا الجزء معقود « للفكر العربي الحديث في سير اعلامه ». وهو يتناول بالتعريف والتركيز في الزمان والمكان والمقام ، ٢١٠ ادبـاء بين الادباء اللامعين الذين برزوا في عهدهم بين ١٨٠٠ ــ ١٩٥٥ ، فعملوا في قيادة الادب وتوجيهه . ويضم هذا الجزء حوالي ٨٠ دراسة عــن ادباء لبنانيين ، و٧٥ مصريين و٢٤ سوريين ، و٢٢ عراقيين ، و١٠ فلسطينيين ، والباقون يمتون الى تونس والجزائر والسودان والحجاز .

وتنقسم كل دراسة الى ثلاثة اقسام رئيسية ــ يكشف لنا في الاول منها الاديب الذي يقدم ، ويميزه في الزمان والمكان والمقام ، ثم يعطينا جريدة مؤلفاته المطبوعة منها والمخطوطة ، ويصف كل واحد منها وصفا بيليوغرافيا دقيقا فيبين عنوان الكتاب وتاريخ نشره ، ومحل النشر ، وعدد الصفحات ، ويشير الى ما فيه من صور ورسوم وخرائط والواح ، ثم يعطينا رأي النقد الادبي في الكتاب وما لقيه ظهوره من صدى في المجلات العربية الكبرى . اما في الثالث من هذه الاقسام ، فيسرد الاستاذ داغر المصادر العديدة التي تمت للاديب المدروس بصلة البحث . وهذه المصادر والمراجع مقسمة الى ثلاثة اقسام : كتب خاصة بالمؤلف ــ كتب عامة ضمت فيه ابحاثا خاصة واخيرا ثبت ابجدي قاموسي بالادباء الذين تولوه بالدرس والتحليل في المجلات العربية الكبرى ، بعد ان فهرس الاستاذ داغر منهـا مجموعة كاملة لـ ١٢٥ مجلة ، فيذكر السنة ورقم المجلة والعدد ، وتاريخه والصفحة الى ما عدا ذلك من المعلومات والافادات الدقيقة .

وحسبك ايها القارىء ان تعرف ان هذا الجزء وحده يضم اكثر من ١٠٠,٠٠٠ مصدر او مرجع بيليوغرافي .

انا اعتقد وطيدا انه ليس في ادبنا العربي الحديث ما يمكن ان نقارن به كتاب الاستاذ داغر . والباحثون الضليعون لا يعرفون اداة للبحث في الادب العربي اوسع من بروكلمان للادب العربي الحديث العام ، ومن الدكتور غراف الذي خسر العلم بخسارته هذه السنة نكبـــة حلت بالدراسات العربية . والمعروف ان الدكتور غراف هو اوسع مرجع للكتبة والمؤلفين النصارى على اختلاف نحلهم ومللهم . ومع هذا نؤكــد ان كتاب الاستاذ داغر في شموله واتساعه وغناه يبز كتـــاب بروكلمـــان في ما جاء منه للادب العربي الحديث كما يبز كتاب الدكتور غراف .

هذه التقريرات والتصديقات لا نلقيها جزافا ولا نكيلها كيلا مدحا وثناء فقد حان للامة العربية ، ان تقدر العاملين في تيسير الاخذ باسباب ثقافتها وادبها ومن البحث العلمي في الشرق العربي باصول وعدة طالما نعينـا خلو الادب العربي منها .

فبين الاستاذ داغر وكبار المفهرسين للادب العربي الاسلامي كابـن النديم في « فهرسته » وحاجي خليفه في « كشفه » وطاش كبره زاده في

(١) مطبعة دير المخلص ، صيدا ، ١٩٥٠ ، ص ٣٥٤

« مفتاحه » ، وبينه وبين السمعاني في « مكتبته الشرقية » وميخائيل الغزيري في فهرسته لمكتبة الاسكوريال ؛ وشائج وثيقة من القربى والصلة المتينة . وسيقول التاريخ عندما يعلو الحق وتخفق العوامل النفسية المضللة ، ان الاستاذ داغر ليس بالاصغر بين هؤلاء الجبابرة .

بقي ان نقول كلمة في مظهر الكتاب من حيث التصويب والسداد والعصمة . فاللغة ممتازة والعبارة سلسة جزلة ، والاسلوب واضح بين .

ومما يؤسف له ، بعض الاغلاط الطباعية التي تشوه مظهر الكتاب بعض الشيء ، وهو امر فطن له الكاتب واسف له وتذمر منه ونعى الطاقة المنفدة التي كانت بين يديه ، فاستدرك على هذا كله وصحح ابرز الهنات والسقطات التي بدرت في الكتاب .

والاستاذ داغر ماض اليوم في اعداد القسم الثاني من الجزء الثاني وهو خاص بالادباء والمفكرين الاحياء . فعسى ان يخرجه للناس قريبا ، فنستكمل به عدة البحث العلمي الى ان يتم لها التمام بصدور جميع حلقات : « مصادر الدراسة الادبية » .

فـؤاد فـاخوري

في المجتمـع العربـي

لكاظم حطيط ـ ٩٦ صفحة ـ منشورات دار الطباعة العربية ـ بيروت

يطالعنا هذا الكتاب بمواضيع لها من الاهمية المكان البارز الذي تحتله وتشغل نفرا من تلك الفئة التي تعالج قضايانا العربية ، ومشاكلنا الاجتماعية ، على ضوء من الحقيقة والواقع ، وقد اهداه صاحبنا الى الطلائع العربية ، المناضلة في سبيل مجتمع افضل .

فشبابنا يعمل في طرق ملتوية نتيجة التوجيه السيء من خصوم القضية العربية ، سواء أكان ذلك في المدرسة ، او في الصحف السياسية المغرضة ، التي يغذيها اصحاب الغايات ، وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه بأنه قدم حلولا لبعض المشكلات المؤلمة كالرجعية ، والطائفية ، وحيرة المراة العربية ، والتجزئة والاستعمار وغير ذلك ، ويرى بانه يجب اول ما يجب على الاديب عندنا ان يتلمس حياة الشعب العربي ، المتطلع الى اعلى وحل مشاكله حلا قوميا صحيحا على ضوء العلم والواقع ، فيؤدي بذلك قسطا من واجبه نحو امته المضطهدة ويشق طريقه الى المجد .

ولنقلب الان صفحات الكتاب ، فنرى صاحبنا قد برهن فيه عن اطلاع واسع لا بأس به ، رغم ان الارتجال ظاهر في هذه المواضيع ، اذ كم كنت اتمنى لو انه اكب على دراسة ما تناوله بصورة اعمق لكان اجزل الفائدة التي كنا نتوخاها منه في هذا المضمار والشيء الغريب في هذا الكتاب انه ينوء تحت عبء ثقيل من الاخطاء المطبعية ، والاغرب من ذلك ان جدول الخطأ والصواب بحاجة للتصحيح .

ومهما يكن من امر فالمواضيع برمتها يستطيع ان يتناولها التلميذ والاديب على حد سواء ، وهي جديرة بالمطالعة لانها تنير بعض الطريق لشبابنا الحائر في زحمة هذا القلق الذي يعانيه مجتمعنا اليوم .

وختاما اتمنى للمؤلف كل توفيق ونجاح ، وملافاة ما يمكن تلافيه في الطبعة القادمة ، ولكتابه الرواج والازدهار ، وتأمل ان يطلع علينا بكتابه الثاني الذي نوه عنه في المقدمة ، بمواضيع يتحاشى فيها الارتجال لان تقديم الحلول ليس بالسهل اليسير كما قد يظن البعض ، ويتلافى ايضا الاخطاء المطبعية التي قد يتيه فيها القراء احيانا ، فيخدم بذلك القضية العربية التي نعمل لها معا على صعيد واحد ، ونشكره على كتابه هذا الذي هو باكورة نتاجه الادبي وقصد به خدمة امته ووطنه ، فادى بعضا من هذا الواجب .

جبع ـ لبنان **اديب الحر**

الاصمعـي

للدكتور عبد الجبار الجومرد ـ ٣٥٠ صفحة ـ مطابع دار الكشاف بيروت

هـذا كتاب نشرته دار الكشاف في بيروت ، وهو من تاليف بحاثة عراقي معروف . واقول الحقيقة اذ اقول انني تهيبت طويلا مطالعة هذا السفر الضخم ، من تاريخ ادبنا الفني بالرجال والاقوال . فلما بدأت لم يعد بامكاني الا ان اتم مطالعته ، من الفه الى يائه .

وفي اعتقادي ان هذا الامتاع هو المقياس الصحيح لقيمة النتاج الفنية ، وبالتالي لكفاءة المؤلف .

والواقع ان دار الكشاف لتهنا من صميم القلب على نشرها هذا المرجع ، في حياة الاصمعي وآثاره ، وهو من هو في تاريخ الادب العربي القديم . ويكفي ان يكون هذا الاديب هو « نابغة اللغة والنحو والادب والشعر والاخبار ! بل انه قد « نبغ فيها » ـ كما يقول المؤلف ـ نبوغا فائقا . فهد في طليعة علماء العرب بها كما انه الم الماما واسعا بباقي العلوم الاخرى التي تتصل بها ، في ذلك العهد ، اتصالا وثيقا ، قبل ان تكتمل وتصبح علوما مستقلة بنفسها . وكان الغالب على مذاهبه في كل هذه العلوم قاعدتين ، اولاهما تضييق دائرة الاخذ ، وثانيتهما التمسك بالنصوص والتقيد بها والابقاء عن الاجتهاد والقياس توخيا « للصدق » .

على هذا النسق يمضي المؤلف الفاضل في نحو من ٣٥٠ صفحة ، يحلل الاصمعي ، بعد دراسة البيئة التي نشأ فيها والعوامل التي اثرت في تكوينه ، منذ ولد حتى مات . فشخصيته واخلاقه ومكانته العلمية ومقامه في دار الخلافة ، منذ اتصاله بهارون الرشيد ، الى اثره في مصرع البرامكة ، حتى استقراره في البصرة وما انتج وما روى ، وما يروى عنه ، انتحالا .

جميع هذا ـ وغير هذا كثير ـ تجده في كتاب « الاصمعي » معروضا بلغة سهلة لا تعقيد في عباراتها وباسلوب مدرسي ، يجعلان هذا السفر كتابا للتدريس ، وللمطالعة في وقت واحد .

وقد الحق المؤلف بدراسته القيمة سبتا للمراجع ، وآخر للاعلام ، يسهلان كثيرا من مشاق التحصيل والمراجعة .

ولا غرو ، من بعد ، اذا جاء هذا السفر تاما ، في اخراجه ، فهو يتناول احد ائمة اللغة الافذاذ ، كما سبق القول ، بل يتناول بتعبير اسحاق الموصلي ـ احدى « عجائب الدنيا المعروفة ، ومنها الاصمعي » !

وهو ، الى جانب ذلك من منشورات رائد النشر الفني في هذه البلاد ، عنيت صاحب دار الكشاف الاستاذ مصطفى عبد الباسط فتح الله .

وهذه شهادة حق يستوجبها الصدق نفسه الذي التزمه الاصمعي في حياته ، فكان موضع ثقة الائمة والفقهاء ، من الشافعي حتى ابن حنبل .

واخيرا تلك الروح العلمية التي تتلمسها في الكتاب : روح الباحث الناقد ، وروح العالم المحص هي ثالثة القواعد التي يقوم عليها هذا النتاج الضخم لذلك الاديب « الجبار » .

ولئن كان من ماخذ عليه فهو ايثار مؤلفه الفاضل ان يجمع بين النصوص التي اختارها وبين النتائج التي وصل اليها في سياق واحد . في حين يقضي المنهج العلمي بالفصل بين تلك النصوص وبين الدراسة التي تسبقها او تتبعها عادة .

وحينئذ ، يكون بامكان المطالع ان يتتبع الموضوع بيسر ، ويخرج من الكتاب بزبدة اعلق في النفس ، وبمعلومات ابقى في الذهن .

رشـاد دارغـوث



● الروم ـ في سياستهم ، وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الجزء الاول ـ تاليف الدكتور اسد رستم ـ ٣٥٥ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المكشوف بيروت ـ لم يذكر اسم المطبعة .

● الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ـ بحوث ودراسات اسلامية جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله عميد كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ـ وهي مجموعة البحوث التي قدمت لمؤتمر برتستون للثقافة الاسلامية ـ ٥٨٢ صفحة ـ حجم كبير ـ نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ مطبعة مصر بالقاهرة .

● تاشيرة الى اوروبا ، دراسات وانطباعات : ايطاليا ، فرنسا ، بلجيكا هولندا ، انجلترا ، سويسرا ـ تاليف اديب مروة ـ ٢٣٦ صفحة ـ منشورات وطبع دار الحياة بيروت .

● اصنام المجتمع ، بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي ـ تاليف الدكتور عبد الجليل الطاهر الاستاذ المساعد بكلية الاداب والعلوم ببغداد قسم الاجتماع ـ ١٥٣ صفحة ـ مطبعة الرابطة ببغداد .

● اتسليات ام مفويات ـ تاليف الارشمندريت استفانوس الياس المخلصي النائب الاسقفي العام لابرشية صيدا ودير القمر للروم الكاثوليك ـ ١٩٥ صفحة ـ المطبعة المخلصية بدير المخلص صيدا لبنان .

● بطولات من تاريخنا ـ تاليف محمد سليم رشدان ـ ٢٠٠ صفحة ـ منشورات دار الحكمة للتاليف والترجمة والنشر ببيروت ـ مطابع الوفاء بيروت .

● اغاني الحياة ديوان شعر ابو القاسم الشابي ـ ١٩٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مع ثلاثة رسوم بريشة الفنان حاتم المكي ـ منشورات دار الكتب الشرقية بتونس لصاحبها السيد محمد خوجة ـ طبع دار مصر للطباعة بالقاهرة .

● العرس المأتم ـ تاليف الشاعر الالماني ليسنك ـ ترجمة الدكتور امين رويحة ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الحكمة للتاليف والترجمة والنشر ببيروت ـ مطابع الوفاء بيروت .

● مع الحياة ـ تاليف سلوى محمصاني مومنه ـ ١٨٤ صفحة ـ منشورات ومطابع دار العلم للملايين ببيروت .

● البابية والبهائية ـ تاليف محمود الملاح ـ ١٠٠ صفحة ـ مطبعة اسعد ببغداد .

● ذكرى الزعيم الخنيزي : الشيخ علي بن حسن علي الخنيزي ـ تاليف عبد الله الشيخ علي الخنيزي ـ ١٦٦ صفحة ـ المطبعة العلمية في النجف الاشرف بالعراق .

● الحان الفجر ـ مجموعة من الشعر الوجداني ـ لعبد الله النفيسي ـ ٦٤ صفحة ـ مطبعة حداد بالبصرة العراق .

● الاعتصام بحبل الله ـ ١١٧ صفحة ـ منشورات ديوان النشر والترجمة والتاليف التابع لجامعة مدينة العلم للامام الخالصي الكبير في الكاظمية ـ المطبعة العربية ، سلمان الاعظمي ببغداد .

● تيسير الكتابة العربية ـ تاليف يونس عبد الرزاق السامرائي ـ ١٦ صفحة ـ مطبعة دار المعرفة ببغداد .

● نداء الارض ـ مجموعة قصص ـ تاليف جان الكسان من نادي القصة السوري ـ ١٠٠ صفحة ـ منشورات مكتبة دار اللواء بالقامشلي ـ مطابع الرافدين بالقامشلي بسورية .

● ميسلون الخالدة ، مسرحية وطنية ذات اربعة فصول ـ تاليف ميشيل الحاج ـ ٥٠ صفحة ـ منشورات دار الرواد بدمشق ـ المطبعة العمومية بدمشق .

● شفق الاحلام ـ شعر ـ لمحمد سعيد المسلم ـ ١٢٦ صفحة ـ مطبعة دار الكتب ببيروت .

● وجد ـ شعر ـ لرزوق فرج رزوق ـ ٦٢ صفحة ـ المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر ببيروت .

● فلسفة في الثقافة ـ تاليف منوال يونس دكتور في الفلسفة استاذ الثقافات الشرقية في جامعة فنزويلا المركزية ـ ١١٥ صفحة ـ مطبعة الريحاني ببيروت .

● الصين الشعبية ـ تاليف محمد عوده ـ ١٩٢ صفحة ـ منشورات دار النديم بالقاهرة ـ مطابع دار النشر للجامعات المصرية بالقاهرة .

● نبي المغربين في القرن العشرين ـ تاليف شهاب احمد المشاهدي ـ ١٢٢ صفحة ـ مطبعة المتنبي ببغداد .

● امروء القيس ـ تاليف محمد العروسي المطوى عضو نادي القلم بتونس ـ ٩٦ صفحة ـ توزيع المكتبة الافريقية بتونس ـ طبع الشركة التونسية لفنون الرسم بتونس .

● رد على ميخائيل نعيمة في مرداد ـ تاليف الاب يوحنا الخوري ـ ٢١٦ صفحة ـ المطبعة المخلصية دير المخلص صيدا لبنان .

● مع الناس ـ مجموعة قصصية ـ تاليف محمود سيف الدين الايراني ـ ١٩٢ صفحة ـ منشورات دار النشر والتوزيع والتعهدات بعمان ـ مطابع شركة الطباعة الحديثة بعمان .

● هذه تونس المجاهدة ـ تاليف عمر البنبلي التونسي مدير المكتب المغربي بالقدس ـ ١٢٦ صفحة ـ حجم كبير ـ دار النشر والتوزيع والتعهدات بعمان ـ مطابع شركة الطباعة الحديثة بعمان .

● رندى شعر ـ لرامز حيدر ـ ٦٥ صفحة ـ مطابع خياطه بطرابلس لبنان .

● Mahomet et la tradition islamique — par Emile Dermenghem — 192 pages — Illustré — «Maîtres spirituels» Aux Editions du Seuil, Paris — Imprimerie Tardy à Bourges France.

● Aux Portes de l'Humain — Poèmes — par André Légier — 62 pages — Illustrations de Guy Vandenbranden — Editions du C.E.L.F. Malines Belgique.



مقدمة « همس الجفون » بالاسبانية

●

وكما تضيق الدوحة بأغصانها المتدلية في بذرتها ، منشدة ملاعب النور والنسيم والطيب ضاقت همسات هذا الديوان في جفونها المطوقة ، ساعية الى آفاق جديدة باكسية جديدة .

كان ذلك عندما ظهر هذا الديوان في بيروت ، فكان فتحا جديدا ، وخطوة جريئة ، في الشعر العربي المعاصر ، باتجاهه الجديد ، وسمو رسالته ، وحرارة كلمته . للفظ حلاوة ، وللخيال اجنحة من حس ، وللجمال مرابع من صور والوان ، وللفكر قبس وهاج .

تلك هي الرسالة التي آمن بها مؤلف هذا الكتاب ميخائيل نعيمة ايمانه بالحياة ، والجمال ، والحق فنادى بها ، ودعا قومه ان يؤمنوا بها ، ويخلصوا لها ، ويعملوا على تحقيق اهدافها ومراميها في عهد (الاستعمار التقليدي) ، وأعني به الاستعمار الادبي ، الذي سيطر مدة طويلة على الاقلام العربية فكبلها ، وتحكم بقوة وراثته فيها فسجن اخيلتها ، واطفأ وهجها ، وعمل على شل عاطفتها ، ووأدعذارى افكارها .

في هذا الظرف من الخمول ، والجمود ، والتقليد ، الذي مني به الادب العربي تلاقت عصبة من الادباء اللبنانيين المهاجرين تحت سماء نيويورك على غير موعد ، فاتفقوا فيما بينهم على تأسيس رابطة ادبية مهمتها : هي انتشال الادب العربي من هذه الوهدة السحيقة ببث روح جديدة في عروقه ، وانعتاقه من عقاله ، والاخذ بيده الى طريق النور ، والجمال ، والحياة ، والحرية .

فتأسست « الرابطة القلمية » سنة ١٩٢٠ وكان من بين اعضائها البارزين جبران خليل جبران ــ عميد . ميخائيل نعيمة ــ سكرتير . ايليا ابو ماضي ونسيب عريضه وندره حداد اعضاء . ومن ثم أخذ انتاج هؤلاء يظهر في اعداد مجلة « السائح » التي كانت تطلع على الادب العربي كحادث جليل فتنوء بهما الصحف ، وتنقل عنها ، وتعلق عليها باعجاب ، وتدرس موادها في المدارس . ولم يصبر انصار التقليد على هذه العاصفة الهوجاء ، التي تهب على الاقطار العربية فتستأصل جذور وجذوع ادبها الرث ، فشرعوا ينقمون على اصحابها ، وينعتونهم بالخروج عن حرمة الادب العربي ، واستهتارهم باصول لغته .

بهذه الحرارة ، وهذا الحماس شق الادب الرابطي بعنف طريق مجده ، وأدى رسالته خير الاداء ، بتحرره للادب العربي من (استعماره التقليدي) فاعجب برسالته المعجبون ، وتتلمذ في مدرسته طلاب الادب المتحررون .

قصدت الحديث عن الادب « الرابطي » ، لاعطي فكرة خاطفة للقاريء الاسباني عن هذه الحلقة الرئيسية المركزية التي تعد بدء الانطلاق في أدبنا العربي الحديث .

اما الفضل في تأسيس هذه الرابطة فيرجع الى ميخائيل ، الذي كتب اليه رفيقه جبران يلح عليه بالحضور الى نيويورك للسعي في انجاز هذا المشروع وغيره من المشاريع الادبية .

ومعرفته بجبران تبدأ سنة ١٩١٢ عندما التحق ميخائيل في خريفها بجامعة واشنطون ، التي تخرج منها بعد اربع سنوات بشهادتي بكالوريوس في العلوم ، وليسانس في الحقوق .

واثناء دراسته في هذه الجامعة ، كان ينشر من حين الى حين في مجلة « الفنون » التي كان يصدرها في نيويورك رفيق صباه نسيب عريضه . وأول مقال كتبه في حياته هو مقال تعرض فيه لنقد قصة « الاجنحة المتكسرة » لجبران . فكان لهذا المقال صدى بعيد في نفس مؤلفه ، وكان السبب المباشر في تعارفهما فيما بعد . ثم تلا هذا المقال بمقالات اخرى في النقد ، بجرأة نادرة ، وصلابة حديدية ، وتهكم لاذع . فندد بالكويتبين ذوي الوراثات الادبية ، وحمل حملة عاصفية على الشعراء الذين ليس لهم من فن الشعر الا القوافي ، والاوزان ، ورصف الالفاظ ، وترقيع الافكار ، واجترار المعاني . فنكل بهم اشد التنكيل ، دون رحمة ولا شفقة ، وجمع هذه المقالات في كتاب اسماه « الغربال » الذي صدر في مصر سنة ١٩٢٣ وكان لصدوره ثورة ضد اقلامنا الرجعية ، حيث اضطلع بموازين ، واراء ، وافكار جديدة في مفهوم رسالة الادب الحي ، وكررت طبعاته مرات عديدة في وقت قصير ، ولا زال الى الان منارة يهتدي بنورها طلاب الفكر الجديد ، والحرف الوضيء .

وقبل ان يصدر هذا الكتاب صدرت له مسرحية « الاباء والبنون » التي كتبها سنة ١٩١٧ على اثر تخرجه من جامعة واشنطون ، وهي مكتوبة باللغة العربية واللهجة اللبنانية العامية ، الا انها عندي لم تلق النجاح الكامل ، لان قسمها مكتوب باللهجة العامية اللبنانية التي تجهلها البلدان العربية ، ما عدا لبنان بالطبع . وحبذا لو عاد اليها مؤلفها من جديد ، وكتب قسمها العامي بالفصيح ، لان فيها من جميل الحوار ، وقوة المشاهد وغناها الشيء الكثير ، زيادة على معالجتها لموضوع حيوي له قيمته ووزنه في المجتمع العربي ، وغير العربي .

والى جانب الشعر ، والنقد ، والمسرح ، عالج كذلك نعيمة القصة والسيرة . وقد صدرت له مجموعته القصصية « كان ماكان ١٩٣٦ » ببيروت وكررت طبعاتها مما يدلناعلى نجاحها ومسايرتها للاذواق الادبية . وهذه الكتب جميعها مع كتابيه « المراحل » و« همس الجفون » صدرت له وهو في مهجره الاميركي .

و « جبران خليل جبران » هو كتاب ارخ فيه لرفيقه . ويعتبر تحفة فنية ، ومن أحسن الكتب التي الفت في الادب العربي ، تلاقت فيه الفلسفة ، والفن ، والموعظة ، والحكمة ، والشعر ، والتوجيه ، والنقد ، باسلوب محكم مشرق واكسية انيقة جديدة .

وقد عرف في هذا الكتاب كيف يعطي للادب حقه ، ولعاطفة الصداقة بعض حقها . الا انه قد غالى في نقد جبران ، من حيث انه انسان ، لا من حيث انه اديب ، فاظهر للناس بعض هفواته الشخصية ، التي لا تمت الى الادب والفن في شيء . وقد نقل هذا الكتاب بعد ذلك مع اخيه « مذكرات الارقش » الى الانجليزية ، ونشرتهما « المكتبة الفلسفية » في نيويورك . فاستقبلتهما الصحافة الاميركية والانجليزية استقبالا ممتازا . اما بالعربية فقد صدر الاول سنة ١٩٣٤ والثاني ١٩٤٨ .

وقد نظم ميخائيل الشعر بالانجليزية والروسية ، هذه اللغة التي بدأ يتعلمها منذ حداثته في مدرسته الابتدائية التي انشأتها الجمعية الروسية الامبراطورية في قريته « بسكنتا » التي شهدت ولادته سنة ١٨٨٩ وبعد ان اتم دراسته فيها سنة ١٩٠٢ انتقل الى دار المعلمين الروسية الى مدرسة « الناصرة » بفلسطين ، وفيها تضلع في العربية والروسية ، ومكافأة على جده وحزمه اوفدته الجمعية الروسية سنة ١٩٠٦ الى معهد (السنمار) بمدينة بولتافا من اعمال اوكرانيا . واقام في هذا المعهد مدة خمس سنوات ، درس فيها الادب الروسي والاداب العالمية .

وقد ترجم بعد ذلك كل اشعاره المكتوبة بالانجليزية والروسية ، وضمها الى اشعاره

العربية وصدرت في ديوان « همس الجفون » ولم يعد الى كتابة الشعر الى يومنا هذا اي منذ عشرين سنة كما جاء في رسالة بعث بها الي في السنة الماضية .

ونعيمة اتخذ مذهبا فلسفيا سلكه بايمان واخلاص ودعا الناس الى سلوكه . واذا تصفحنا كتبه : « البيادر ١٩٤٥ » « زاد المعاد ١٩٣٦ » « صوت العالم ١٩٤٨ » « الاوثان ١٩٤٦ » وسواها من كتبه ، نجدها تبشر بهذا المذهب داعية الى وجود انسان واحد ، تحت علم واحد ، في بقعة واحدة ، تحت قانون واحد هو : المحبة التي لا تدين بأي دين ، ولا تتعصب لاي جنس ، او امة ، او اقليم ، ولا تتلون بأي لون من الالوان ، او ترتدي بشرة من البشر . فعواطفها تطوي الابعاد ، وتهزأ بالحدود ، وتسخر بالخصومات ، والنعرات ، والاحقاد ، والاختلافات ، والعصبيات ، وهو القائل في « البيادر ص ٤٤ » : احر به ان يمحو التخوم والحدود التي يقيمها بينه وبين اخيه الانسان اذ لا تخوم في الله ولا حدود . احر به ان يجعل من قلبه مائدة لكل ما في الكون مثلما كل ما في الكون مائدة لقلبه . احر به ان يعانق بفكره كل المخلوقات مثلما تعانق كل المخلوقات فكره . احر به ان يغسل بدمه وزر جاره من ان يلبس من دم جاره وزرا فوق اوزاره . »

ومن هنا يطل علينا مذهبه الفلسفي (الحلولية) هذا المذهب الذي يستهوي عادة الشعراء المثاليين ، السماويين ، الحالمين ابدا بالجمال ، المبشرين دائما بالمحبة ، والخير في صعيد الحق والنور . وليس ميخائيل وحده من اتباع هذا المذهب . فبين شعراء العرب اليوم كثير ممن تمذهبوا بهذا المذهب الذي يقول : بالوحدة الجوهرية بين الله والعالم . فالله هو كل شيء وما كونه الفسيح الا مظاهر متعددة لالوهيته .

ولقد تغلغل فيلسوف العرب ميخائيل بفكره النشيط العميق في الكون ، وما فيه من نبات ، وجماد ، وحيوان ، وما يحويه من ملموس وغير ملموس ، من منظور وغير منظور . فراى الكون قوة هائلة تنفصل عن بعضها لتمتزج مع غيرها لتادية الغاية التي انبثقت من اجلها . « تتصل الخليقة كلها بعضها ببعض . فانتم في ارتباط سرمدي مع كل ما في الكون » . البيادر ص ٥٠ .

وليس في الكون شيء ولد عبثا حتى الاشياء التافهة في نظر نعيمة ازلية ، لا اول لها ولا نهاية ، لانها منحدرة من الله . والله ازلي سرمدي خالد . « فالوجود بكل ما فيه من محسوس وغير محسوس هو جسد الله الحي . وانتم منه ، وانا » . البيادر ص ٤٩ . ويمكننا من هنا ان نستخلص الا فرق عند ميخائيل بين الانسان ، والجمادات ، والنباتات الا من حيث الادراك ، والوعي ، والحساسية . اما الغاية التي وجدوا جميعا من اجلها فواحدة . فلا موت ولا حياة ، ولا حساب ولا عقاب لهذا الانسان ، لان الكون عند نعيمة فوارة الهيئة ، ازلية ، خالدة بخلود الله . والله هو المحبة. « لذلك كان الانسان الصادر عن الله صورة لمصدره فكان ازليا بازليته ابديا بابديته ». البيادر ص ٦٢ .

وليس من قصدي ان اتوسع في هذه الدراسة الخاطفة عن نعيمة ، وفلسفته في الحياة ، وما في الحياة ، من آلام ، وافراح ، واشواق ، واحلام ، وشكوك وغيرها . وحسبي اني فتحت كوة تجاه القارىء البعيد عن ميخائيل ، وحسب هذا القارىء ان يطل منها على هذا الفيلسوف المثالي الذي جاء مبشرا برسالة الخير ، والمحبة ، والجمال الى ابناء العالم العربي ، في ذلك الشرق مهبط الوحي ومنبع الروح ، وليطلع ايضا الى بعض اتجاهاته الفلسفية ، وحسبه كذلك ان يرجع الى هذا الديوان الذي ستطلع عليه صفحاته مشرقة ، فواحة بنور وعبير هذا الشاعر المفكر .

ويظهر لي ان نعيمة تاثر تاثرا بمواعظ الانجيل من جهة وبروح الاشتراكية لا قشورها من جهة اخرى . وان هو لم يتأثر بالانجيل كثيرا فقد اثرت فيه قوالبه اللفظية دون شك كقوله مثلا : « جردوا قلوبكم من مدافع الطمع وحراب البغض وقنابل الحسد » « ولا تبغضوا أحدا من الناس ... ابغضوا كل ما في الناس من ضعف واثم » « لا تكرهوا الظالم » اكرهوا الظلم» « لا تهربوا من الجاهل ، اهربوا من الجهل » « ان شئتم ان يكون عالمكم الخارجي طاهرا ... اغسلوا ايديكم بماء الغفران وعطروها بشذى المحبة » زاد المعاد .

ولا اجرؤ ان اقول رأيي في كتابه « مرداد » لاني لم اطلع عليه بعد . رغم ان مؤلفه بعثه الي الا انه ضاع بالبريد مع الاسف . هذا الكتاب الذي الفه اولا بالانجليزية وصدر في نيويورك عن دار « المكتبة الفلسفية » ثم نقله بعد ذلك الى العربية . وفي مطلع هذه السنة صدرت في الهند ـ بومباي طبعة خاصة منه بالانجليزية . وكان له نجاح عظيم بين الكتاب والمفكرين الهنود . فمنهم من اطلق عليه « كتاب الساعة » ومنهم من اطلق عليه (كتاب

واذكر اني قرات في احدى الصحف العربية الصادرة بالبرازيل ، مقالا مضمنه ان افكار « مرداد » قد اخذت تشق طريقها في نفوس الناس ، حتى ان بعضهم قد تمسك بارائه ، واصبح يطبق حياته على حسب ارائه ومعتقداته . اما الصحافة العربية على العموم فقد بالغت في تقريظه والاعجاب به . ذاكرة ان هذا الكتاب احسن كتب ميخائيل نعيمة « ناسك الشخروب » .

وهذا اللقب اطلقه عليه ادباء العرب لتوهمهم بتنسك صاحبه في (شخروبه) والشخروب هو عبارة عن مزرعة ورثها هو واشقاؤه . وتقع في شرق (بسكنتا) وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٠٠٠ قدم . ويوجد في هذه المزرعة كهف رهيب يركن اليه نعيمة وقت تنزلاته . وفيه كتب بعض مؤلفاته منها كتابه عن جبران .

وقد اشتهرت هذه القرية ـ التي تبعد عن بيروت بنحو ٤٥ كلم تقريبا ـ بجمال طبيعتها وغزارة مياهها . اما سكانها فقد عرفوا من قديم ، بحصافة رأيهم ، وسداد فكرهم ، وطول نفسهم في المناقشة ، والمناظرة ، والحكاية .

ول « بسكنتا » اليوم مكانة عظيمة في نفوس ادباء العرب الذين يقصدونها لزيارة (شاعرهم الفيلسوف) من معجبين ، ومستفسرين ، وسائلين .

ولقد وجد نعيمه سعادته وراحته في بسكنتا التي عاد اليها من اميركا سنة ١٩٣٢ وبهذه المناسبة أقيمت على شرفه في بيروت حفلة تكريم كبرى . ومنذ ذلك الحين وهو قابع في بسكنتا بين المطالعة ، والتاليف ، وتحضير المحاضرات للمنابر والمذاييع . ولم يعرف عليه يوما ما انه تحزب لحزب من الاحزاب او سخر قلمه لهرج السياسة ، او عفر ادبه لمدح احد كان من كان ، او خاض في جدال ادبي عقيم . ومن شانه الصراحة في القول ، والصرامة في العدل . وللادب عنده حرمته وقدسيته وهو القائل في احدى محاضراته : بعبادة الادب . لم يتأثربأي كاتب من الكتاب ، رغم اعجابه الشديد بالادب الروسي وبالخصوص دوستويفسكي . لاسلوبه

شخصية قوية ، وطابع انساني ، ويمتـاز بغناه اللفظي ، وموسيقيتـه ، وحلاوتـه ، واستعاراته المبتكرة ، وحرارة كلمته . ولا يزال الى الان في نشاطه الادبي ينتج باستمرار .

هذا هو ميخائيل نعيمه فيلسوف العـرب ، ورائد الادب العربي المعاصر وهاديه . وهـو الان يتمتع بشهرة عريضـة في اميركـا ، وانكلترا ، وفرنسا ، والهند بعد ان نقلتكتبه الى لغات هذه الاقطار .

ولا اريد ان اقول شيئا في هذه الترجمة بعد ما خبرت اصلها ، ولاترك الحكم الـى القارىء الاسباني نفسه فهو حري به على اني اريد ان اشكر المستشرقة ليونورمرتينث مرتين، نيابة عن ادباء العرب ، على قيامها بترجمة آثارنا العربية الى لغتها ، وعلى ما ستقـوم به من ترجمات ، مقدرا كل التقدير جراتهـا واقدامها على ترجمة هذا الديوان ، رغـم الصعاب التي توجد في ترجمة الشعر من لغة الى لغة ، وخصوصا اذا كان بين اللغتين تنافر كما هو موجود بين العربية والاسبانية .

وهكذا انفجرت همسات هذا الديوان ، بعد ما ضاقت في جفونها ، فسمعت الى آفـاق جديدة باكسية اسبانية ، كما تنفجر الدوحـة ما تضيق في بذرتها منشدة ملاعب النور ، والنسيم ، والطيب .

تطوان ــ المغرب **محمد الصباغ**

ولفجانـج مـوزارت

●

ولـد موزارت [١٧٥٦ ــ ١٧٩١] منـذ مائتي سنة في ٢٧ يناير ١٧٥٦ . وكانوا يطلقون عليه لقب ((الارستقراطي))وفي الواقع كان الوحيد من الموسيقيين جميعا الذي يستحق ذلك اللقب .

ان كل ابداع يعبر تعبيرا عن مكنـون شخصية الانسان ، بل وعن عبقريته ايضا . وتركيب شخصية الانسان معقد تعقيد الذرة تماما ، فنواته تختفي تحت قشور مختلفـة يحتاج الامر الى معرفتها لتكوين فكرة كاملـة عن ذلك الانسان . واذا اردنا ان نفسر اعمال فنان معين عن طريق استعراض حياته اغرقنا انفسنا في ظلمات الحيرة والارتباك . وكلمـا كان الفنان عظيما ازدادت رغبتنا في التعرف على كل ما يتصل به . ومن هنا يعد موزارت من الشخصيات الغامضة التي ظهرت فـي التاريخ الى الان . ويحسن ان نسترجع مـا كانت عليه مدينة سالزبورج ايام موزارت، فقد كانت قبلة المحبين للنغم والالحان . وكـانت في القرن الثامن عشر مدينة صغيرة قروية بكل ما يحمله هذا اللفظ من معان غير جميلة. وكانت الى ذلك غارقة في واديها ، فلم تكن تربطها بالعالم صلة . وانتشرت حول موزارت روح الحقد والغيرة والمكائد وكل ما خلقتـه صلات سالزبورج بحياة البلاط ، فاثار ذلك كله في نفس موزارت المرهفة حساسية لكل ما حوله وشعورا قويا بالاضطهاد . ولم يعرف موزارت ان يتخلص من قلقه الا في اواخـر حياته حينما استقر به المقام في مدينة فيينا حيث وجد شيئا من السلام .

وقد عانى موزارت الكثير في حياته ، وعلى الاخص من جراء معاملة ابيه له ، وكان ابـوه موسيقيا موهوبا . وقد اكتشف مبكرا عبقرية ابنه ، ولكنه اساء استغلال مواهبه المبكرة بل ومواهب ابنته ايضا . فما ان تعلما القراءة والـكتابة حتى انقطعا عن المدرسة ، بـل ومنعهما الاب الاتصال باقرانهم من الاطفـال . وقد طافا في اوروبا واحتفلت بهما ((المجتمعات الـكبيرة)) في ذلك الوقت مما نال من نمـو موزارت الجسمي . فبينما كان ابواه طويلي القامة مشدودي العود على غرار معظم سكان منطقة سالزبورج كان ولفجانج موزارت نحيفا وكان راسه الكبير يقف على كتفين ضعيفـين وجسد هزيل . وكان الطفلان يساقان مـن عاصمة لاخرى وكادا لا يجدان راحة فـي تناول وجباتهما الغذائية . ومثل هذا النظام في الحياة كان ولا شـك سببا قويـا في انعدام الراحة والاستقرار اللازمين لاي مجهود ابداعي حقيقي . ولا شك ان ذلك الطفل الفذ قد استغل استغلالا سيئا وان كانت شهرتـه للاسف تدين بالكثير لقصة طفولته الاليمة .

ويكفي ان نشير هنا الى ان عددا كبيرا مـن مؤلفاته الاولى التي اعاد ابوه النظر فيهـا واصلح الكثير منها لم يعد لها قيمة عـلى الاطلاق . لقد كان ذلك الطفل موهبة ضخمة، فقد وهب حاسة سمع خارقة للعـادة تمكنه من التمييز بين الاصوات حتى الدرجة الثامنة في الاصوات ، والى ذلك كان يتمتع بذاكـرة صوتية خارقة وقدرة على التاليف السريع .

ولكن كل هذه المواهب لم تكف لبلوغ المجد . فعبقريته كانت ما تزال مغلقة في قلبه ، ولـم تجد طريقها النهائي الى الخارج الا حينمـا بلغت شخصيته درجة النضوج .

ثم كانت عودته الاليمة الى باريس ، حيث كان يستولي على قلبها الموسيقي (جلاك) ، فلم تعترف بموزارت حتى مجيئه ، ولقي مرارة اخرى قاسية في سالزبورج حينما عاد اليهـا ليحضر موت امه . وهناك عاش حياة بسيطة في خدمة الارشفيك كولبراد والذي احتفظ به لمجرد التمشي مع التقاليد في ذلك العهد .

واذا كان الموسيقيان هايدين وبيتهوفن قد ادركا بعض الحظ والرعاية لدى الامبراطور والايستيرهازيز ، فان موزارت قد عانى الـكثير من ذلك الارشفيك الذي انتهى بطرده منقصره .

وحينما بلغ موزارت السادسة والعشريـن من عمره رحل الى مدينة فيينا . ولما اطمان فيها الى تاييد الامبراطور والنبلاء وتذوق في تلك المدينة طعم السعادة لاول مرة في حياته استقر به المقام فيها حتى اخر حياته . وفي خلال تلك الفترة وضع موزارت معظم اعمالـه الرائعة ــ سيمفونياته الرائعـة (جوبيتر) و (زواج فيجارو) و (دون جوان) و (الناي المسحور) . ومات موزارت في الخامسـة والثلاثين من عمره عقب ازمة حادة . وما زلنا لا نعرف حتى الان مقر مقبرته . فقد دفن على طريقة الفقراء ، اجابة لرغبته التي ابداهـا لصديقه البرختسبرجر ، وحدث ان تفرق النفر القليل الذي شيع جنازته على أثر زوبعةشديدة هبت في ذلك الوقت .

واذا عرف العالم في الموسيقي بيتهوفن بطلا ينتصر على الالم والعداوة في نشيـد المجد وعرف في سيزار فرانك حالما ابديا امام ارغون كنيسة (سانت كلوتيلد) ، فقد ادرك في صورة موزارت رمزا يفوقنا وان بقيت شخصيته علامة استفهام غامضة . ومهمـا كنا نعرف الكثير عن ظروف حياته ولا نجهـل شيئا عن نجاحه ، ونعرف من كانوا اصدقائه ، الا اننا لا نعرف كنه ذلـك الانسان فهـو شخصية قلقة معقدة تجمع شتى المفارقات .

ولكن مهما تكن شخصية موزارت من غرابة وتناقض ، فهو الموسيقي الوحيد الذي تروق الحانه للافراد جميعا في كل مكان وزمـان . ولا عجب اذن اذا بقيت اعماله خالدة ، ولا عجب اذا تركت اثرها العميق في كل انسان ينصت اليها، فاصبحت لحياته وروحه كنزا لاينفد.

هـوج هـبر

حول اليانصيب الوطني اللبناني

○

من المؤسسات الرسمية في لبنان التي تعود على البلد بالنفع العام ، مؤسسة اليانصيب الوطني اللبناني . التي انشئت اوائل عام ١٩٤٣. ومنذ ذلك الحين وهي تعمل جاهدة في حقل الاسعاف الاجتماعي ، فتساهم مع مختلف الجمعيات الخيرية والمؤسسات الانسانية في توفير الرخاء للمعوزين والعجزة والايتام من اللبنانيين .

فقد ساهمت حتى الان باقامة دور الخير بنياناوترميما في العاصمة وفي سائر المناطق اللبنانية مما لا يمكن تعداده في هذه الاسطر القليلة .

اما الملايين من قيمة الجوائز التي دفعت الى الرابحين والنفقات العامة التي افاد منها الكثيرون من اللبنانيين ، وما يزالون ، فهذا ايضا يحتاج الى الصفحات الطوال لتعداده وتفصيله ، لا سيما وان كثيرا من الرابحين قد تمكنوا بفضل ما ربحوه ان يصبحوا من ذوي اليسار والرفاه ، ناهيك بالقائمين على دور الخير والاحسان والاسعاف الذين ما فتئوا ينظرون الى اليانصيب الوطني اللبناني نظرتهم الى صندوق اسعاف عام دائم العطاء . وليس ادل على ذلك من الكلمة البليغة التي كتبها واذاعها العلامة الاستاذ عارف النكدي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق مفتتحا بها سلسلة احاديث واراء ستذاع وتنشر لكبار رجالات البلاد الذين وقفوا انفسهم على خدمة المجتمع اللبناني من وراء مؤسساتهم الانسانية ، وخبروا سخاء اليانصيب الوطني في هذا المضمار .

اليانصيب الوطني

يوم أقرت الحكومة مشروع اليانصيب الوطني . واصدرت الى السوق اوراقه تلقاه بعض اللبنانيين بالتساؤل عما يكون مصير امواله واستنكرته جماعة من المتدينين باعتبار انه ضرب من القمار ما كان من الحق ان يصدر عن الحكومة .

ثم لم يلبث الامر طويلا حتى ظهرت فوائد هذا اليانصيب للناس . خدم الحظ فريقا منهم فجنوا من ورائه ارباحا طائلة بلغت عند نفر منهم حد الاثراء، وهونت على آخرين سبل الحياة . ومكنت جماعات كثيرة من الارتزاق ببيع اوراق اليانصيب كانوا لولا هذا العمل الذي زاولوه متشردين يهددهم المستقبل المظلم الذي ينتظر امثالهم من العاطلين .

لذلك كان طبيعيا ان ترتاح نفوس الوطنيين كافة الى هذا المشروع لما كان من نتائجه الموفقة .

على ان هذه الفوائد والمنافع على كبير قيمتها لا تعد شيئا مذكورا اذا هي قيست بالفوائد ، العامة التي نجنيها نحن القائمين على المؤسسات الخيرية ، من دور ايتام ومأوى عاجزين وملاجيء مرضى ومعوزين. لقد كفل لنا هذا المشروع موردا طيبا من ضريبة اختيارية انسانية مكنتنا من ايواء كثيرين من المحاويج. كانوا جياعا عراة حفاة . فكفل لهم هذا المشروع الغذاء والكساء والحذاء . وكان بعضهم عالة على ذويهم على فقرهم وآخرون يطوفون الشوارع طلبا للصدقات فكفل لهم هذا المشروع العلم والايواء ، وقطع عليهم طريق التشرد والسرقة والاستجداء .

ومما يحمد لهذا المشروع انه وفق الى ادارة صحيحة وايد نزيهة صانته عن سوء الاستعمال وجنبته الاقاويل وسيىء الظنون . وجاءت توزيعاته الاخيرة عادلة موفقة بما يعود بالثناء على مديره النزيه الاستاذ فائز مكارم .

وفق الله كل عامل لخير امته ووطنه .

عارف النكدي



١٧ فبراير ١٩٥٦ ــ ابلغت حكومة المانية الغربية باريس ولندن انها بوصفها دولة ذات سيادة وعضوا في الحلف الاطلسي لا تريد ان تساهم بنفقات مرابطة القوات الحليفة في اراضي غربي المانيا ابتداء من شهر مايو المقبل.

١٨ ــ انهى مؤتمر رؤساء البعثات الدبلوماسية الباكستانية لبلاد الشرق الاوسط اعماله بتاكيده الحاجة الماسة الى سرعة ايجاد الحل الذي يرضي العرب في نزاعهم مع اسرائيل لضمان التقدم السياسي والاقتصادي في هذا الجزء من العالم .

٢٠ ــ اعلنت وزارة الخارجية البريطانية ان المفاوضات التمهيدية جارية للدخول في مباحثات رسمية بين بريطانيا والملكة العربية السعودية .

٢١ ــ أكد رئيس الوزارة السوفييتية الماريشال بولجانين ان القيادة الجماعية ستستمر في الاتحاد السوفييتي الذي لن يرجع ابدا الى حكم الفرد .

٢٢ ــ وافقت الجمعية التأسيسية في كراتشي على تسمية الباكستان « جمهورية الباكستان الاسلامية » .

٢٣ ــ وجهت الحكومة السورية انذارا رسميا لاسرائيل بانها ستجابه بالقوة كل محاولة تقوم بها لتحويل مجرى نهر الاردن .

٢٥ ــ ابلغت امريكا الحكومة السورية ان الدول الغربية الثلاث على استعداد لاتخاذ اجراءات حازمة عند وقوع أي خرق لخطوط الهدنة بين الدول العربية واسرائيل .

ــ صرح سفير سوريا بمصر ان سفير الاتحاد السوفييتي في القاهرة اكد له بان الاتحاد مستعد للتدخل في الشرق الاوسط لدى اية محاولة من الدول الغربية للتدخل بدون اذن من الامم المتحدة .

٢٦ ــ عرضت الحكومة العراقية مساعدتها العسكرية على سوريا ولبنان والاردن ومصر وهي الدول التي لها خطوط هدنة مع اسرائيل.

٢٧ ــ كلف السيد كرامنليس بتشكيل الحكومة اليونانية الجديدة وهو زعيم حزب الاتحاد الراديكالي الدمقراطي الذي فاز بالاكثرية في الانتخابات الاخيرة .

ــ وصل الى وشنطن السيد جيوفاني غرانش رئيس جمهورية ايطاليا .

٢٨ ــ وجه السيد جي موليه رئيس الوزارة الفرنسية نداء الى الجزائريين يدعوهم الى المهادنة ويناشد الثوار كي يلقوا سلاحهم على ان تقوم فرنسا باجراء انتخابات عامة حرة وعادلة في الجزائر في مستقبل قريب جدا وقال اذا رفضوا القاء السلاح فان فرنسا ستعبىء جميع قواها لقمع الثورة .

٢٩ ــ قرر الرئيس ايزنهاور ترشيح نفسه في الانتخابات المقبلة لرئاسة الجمهورية الامريكية

اول مارس ١٩٥٦ وصل المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية الى مصر في طريقه الى كراتشي وقد جرت بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر محادثات هامة .

٢ ــ وقع في باريس بيان مشترك فرنسي مراكشي نص على اعتراف فرنسا باستقلال مراكش وعلى اقامة علاقات من الترابط المتبادل وتؤكد فرنسا بالبيان اعترافها التام باستقلال المغرب الاقصى الذي سيؤدي الى منحه تمثيله الدبلوماسي الخاص وجيشه الخاص وان المفاوضات الحاضرة تجري بين دولتين مستقلتين متساويتين ترمي الى عقد اتفاقات تحدد الاستقلال مع الاعتماد المتبادل .

ــ عزل الملك حسين الفريق جلوب « الانكليزي » رئيس اركان حرب الجيش الاردني وهو المشهور بين البدو « بابو حنيك » وقد اصبحت قيادة الجيش الاردني كلها عربية .

ــ قامت في الاردن مظاهرات كبيرة ــ تأييدا للملك وابتهاجا بعزل الفريق جلوب .

٥ ــ قررت الحكومة البريطانية سحب كبار الضباط البريطانيين من الجيش الاردني واعلن السر انطوني ايدن في مجلس العموم ان الموقف بالاردن ليس بالموقف المقبول اذ سيكون له تاثير على الوضع الدولي وعلى علاقات بريطانيا بالاردن . وقال ان الموقف خطر .

ــ انتخبت الجمعية التأسيسية في كراتشي الجنرال اسكندر ميرزا رئيسا للجمهورية الباكستانية الاسلامية وهو اول رئيس لها .

٦ ــ بدأت المباحثات السرية في القاهرة بين الملك سعود والرئيس شكري القوتلي والرئيس جمال عبد الناصر وهي المباحثات المقررة بين رؤساء الدول العربية الثلاث التي مهد لها وزراء الخارجية .

٧ ــ قدمت سورية الى جامعة الدول العربية طلبا بمنحها طريقا مباشرا الى المملكة السعودية من نقطة التقاء حدود الاردن والعراق في الصحراء .

ــ وجه السلطان محمد بن يوسف انذارا الى اسبانيا بان معارضتها لتوحيد مراكش تعرض للخطر تسوية العلاقات المراكشية الاسبانية .

٩ ــ اعتقلت السلطات البريطانية المطران مكاريوس مطران قبرص وزعيمها الوطني ونفته الى جزيرة سيشل .

ــ وصل الى نيودلهي المستر جون فوستر دالس ناظر الخارجية الامريكية للقيام بمحادثات مع البانديت نهرو تهدف لازالة سوء التفاهم بين الحكومتين .

١٠ ــ اضربت جزيرة قبرص وقامت مظاهرات عنيفة فيها وفي اليونان احتجاجا على نفي المطران مكاريوس .

١٢ ــ ختم رؤساء الاقطار العربية الثلاثة مؤترهم في القاهرة واصدروا بيانا مشتركا يرسم سياسة حياد عربي مسلح ويطوق اسرائيل بتدابير محكمة ويشجب العدوان في البريمي والمغرب ويؤكد التمسك بالمبادىء التي اعلنها مؤتمر الدول الافريقية الاسيوية بباندونغ .

ــ صدر في لندن بلاغ بريطاني فرنسي مشترك يعلن وحدة سياسة الدولتين حيال عدد من قضايا الشرق الاوسط كما يعلن تآزرهما في محاربة حركة استقلال الجزائر .

١٣ ــ وقع اعتداء اسرائيلي على قرية برطعة في الحدود الاردنية وقد قتل اربعة جنود اسرائيليون واستولى الحرس الوطني على عدة اسلحة حربية اسرائيلية .

١٤ ــ طلبت حكومة اليونان ادراج قضية قبرص في جدول اعمال الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة .

١٥ ــ اعلن المستر هوايت بلسان وزارة الخارجية الامريكية ان الولايات المتحدة تتوقع القيام ببعض التوصيات بشأن النزاع بين بريطانيا واليونان حول قبرص .

ــ قدم الاستاذ رشيد كرامي رئيس الوزارة اللبنانية استقالته .

ــ اجتمع الملك فيصل والملك حسين وبحثا القضايا التي تهم العراق والاردن .

مطبعة الشراع
بيروت ــ الحازمية